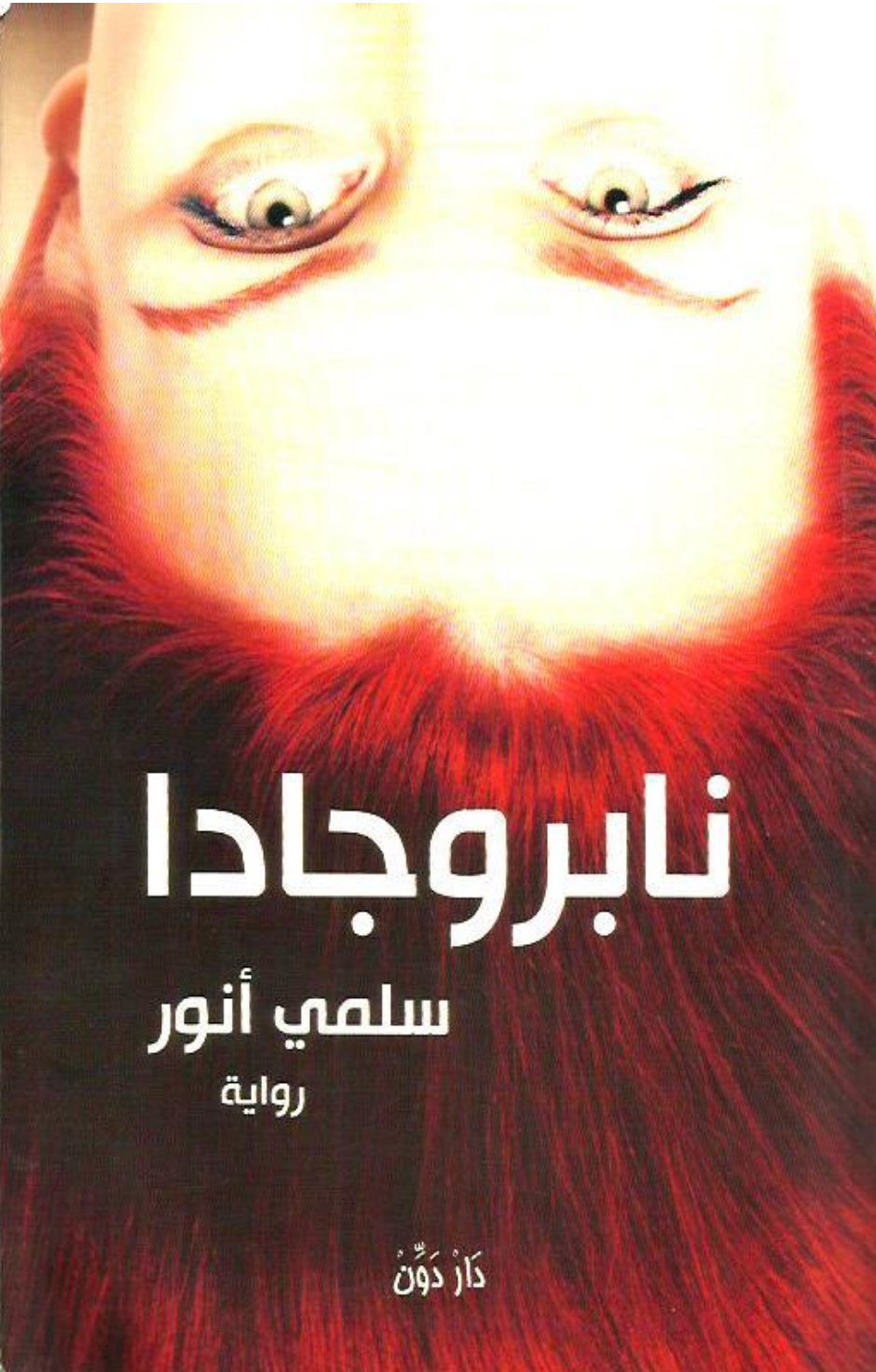
نابروجادا
سلمي أنور
رواية
دَارْ دَوِّنْ

نابروجادا

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٥
رقـم الإيـداع: ٢٦٣٧٩/ ٢٠١٤
الترقيم الدولي: ٤-٧٦-٦٤٢٦-٩٧٧-٩٧٨
تصحيح لغوي: محمود الغنام
تصميم الغلاف: أحمد مراد

جَميـعُ حُقـوقُ الطَبـعُ والنَشرُ محـفُوظة
©دار دَوِّنْ
تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

نابروجادا

في حقيبة سفر لامرأة ممسوسة

سلمى انور

دار دَوّن للنشر والتوزيع

إهداء

إلى الرجل الوحيد بشوارب في حياتي!

الرجل الذي لم يفارقني بالموت ولا أفارقه بالحياة.

أبي

ممسوسة

ممسوسة.. هكذا كانوا يقولون عني في صغري!

ممسوسة..

لكن ما مسَني؟!

"اسمهم إيه دول اللهم احفظنا.. إنتِ ياختي مش شايفة البت أحوالها عاملة ازاي"

يوماً ما، جاءتني الخالة بابتسامة حانية.. وحدها الخالة كانت تعرف كيف تتسرب لدواخلي بسُمرتها الدافئة ونظرة الألم تلك التي شبَع المرض المزمن عينيها بها.

جاءت إليَّ الخالة في "مهمة":

"يعني حنفضل ساكتين على بسم الله الرحمن الرحيم اللي فيكي ده لحد ما يشل حياتك بالكامل؟"

ثم طلبت مني أن أطيع الشيخ حامد، الرجل الأسيوطي اللزج، وأن أستحم في غرفتها بالماء الذي قرأ عليه الرقية الشرعية ومزجه بزيت "مارمينا"!

- لماذا مارمينا يا خالة؟

- لأن القبط يقولون إنه يقضي الحوائج!

- وهل نحمل كلام القبط على الصدق يا خالة؟

أدينا بنعمل اللي علينا يا بنت عمري.. قومي استحمي الله يهديكي.. واقري المعوذتين لحد ما ينتهي الحمام.

قمت أستحم في الماء المزيت والدموع تغشي ناظري.. اختلط زيت مارمينا بدموعي فكنت أنظر في قاع طبق الحموم فلا أكاد أرى قدمي.. أيهم يعمل لصالحي؟ زيت مارمينا؟ أم الرقية الشرعية؟ أم سر الشيخ النصاب؟

أم تراه الكل باطل؟!

ليلتها أوصاني حامد الشيخ بابتسامة ثقة وقحة بأن أنام على يميني بعد أن أقرأ السبع آيات المنجيات.. في الصباح زارني ليسألني عما رأيت في منامي. قلت إني رأيتني ساجدة مطيلة السجود بمحاذاة دورة مياه! "ألم أقل لكم؟ ابنتكم ممسوسة.. ابنتكم نجمها خفيف! نظرة يا نبي!" هكذا قال بصوت مجلجل..

يا لانتصارك المجاني يا شيخ شيوخ منصر الجنوب، يا لزج الأصابع واللمسات.. افرح بما أوتيت اليوم، وإن غداً لناظره قريب..

أممسوسة أنا حقاً؟ من أين لشيخ "قرد" هذا بكل ذاك الفتوح؟ ألأني فقط أرى أموات عائلتي الأقرب إلى قلبي وقد أتوا من عالم ما وراء العالم كي يلاطفوني في وحدتي؟ هم يأتون لطفاً ويمشون هوناً ويفارقون سلاماً.. فما الضير؟

ثم إن جدتي كذلك كانت تراهم! نعم، كانت تراهم في حجرة المسافرين بأثاثها النبيذي المترب وإطارها المذهب الكالح وصور الموتى الأبيض وأسود المنثورة على كل حائط، وقد شقّ زاوية كل منها شريط أسود مائل يذكّرنا بأنهم أحياء عند ربهم..

كانت تجالسهم مجالسات طويلة.. تحكي لهم وتمسُّهم مسّاً رهيفاً ويمسُّونها، ولم تستعذ يوماً بالرحمن منهم.. فهم أحباء أتقياء.. هم نور.. هم هنا بأمر الله كمثلنا.

لم ترو لي جدتي يوماً أنها استعانت عليهم بآية الكرسي إلا أيام أن لازمها العبد الأسود ذو السوط! كانت أياماً عصيبة.. كان يلازمها كظلها وإن لم يؤذها.. وسمعتها مرات تنهره وتتوعده وتهدده "بسم الله عليك.. بسم الله أكسرك.. بسم الله أشقّك نصين ما يجتمعوش ولا يلتئموش.. بآية الكرسي يقع سوطك وبآية الكرسي ينشرخ قومك"

جدي كان ينهرها، لكن دون أن ينسى أن يسبق اسمها بلقب "ست" كعادته: "ما هو انت أصلك يا ست سعاد مخك مش في راسك.. قالولك أختك ماتت في حادثة ونقلوها المشرحة، قومي تنزلي وراها التلاجة؟ عارفة يعني إيه تلاجة القصر العيني؟ يعني جتت محروقة وجتت غرقانة وجتت منفّخة.. طب أديكي اتلبستي أهو!"

فتجيب محتدة لكن محتفظة له بلقب "سي" كعادتها هي الأخرى: "اللي حصل بقى يا سي كمال.. هو المقدّر ينحاش عمره؟!"

آية الكرسي لم تفلح مع ذي السوط! فاضطرّت جدتي لدعوة "عمو أبنوب" صديق العائلة القبطي الطيب أصلع الرأس: "والنبي والعدرا يا أبنوب أفندي تشوفلنا حاجة من عند قسيس كنيستكم في مصر القديمة.. ألا جتني اتلبشت ولا قادراش عليه ابن الواطي"

وجاء كاهن الكنيسة وقرأ قبساً من كتاب أسود ضخم أحسبه كتابهم المقدس.. وفارق العبد ذو السوط جدتي من يومها إلى الأبد..

بعدها بسنوات لازمت المرأة ذات الوشاح الأسود أمي! لازمتها في غفواتها وحرمتها النوم العميق بضغط رقبتها وصدرها حتى كادت أمي أن تختنق تحت أصابعها.. لكن ذات الوشاح كانت أقل عنتاً من ذي السوط.. فقد اندحرت ذات فجر بآية الكرسي.

الخالة هي الأخرى كانت تتبعها امرأة قزمة.. ومارد!

في الصندرة.. في المطبخ.. في بهو المنزل.. في بئر السلم.. في حجرة الخزين.. لكن الخالة كانت تتعايش معهما بهدوء وسلام.. وتحكي عنهما بابتسامة وتعطّر لهما المنزل كل جمعة بالبخور على سبيل التحية.. كانت مسحة التصوف التي تتحلى بها تجعلها شفيفة لطيفة.. لا تؤذي إنساً ولا يؤذيها جن.. وكانت ترى بعين ثالثة خفية ما لا نرى بعيوننا الأرضية الفانية فتفصح حيناً وتتكتم أحياناً.

لم يمسس خالتي الرهق إلا بعد أن بدأ المارد والقزمة يكسران أواني زواجها المزخرفة من دون داعٍ! وانزعجت عندما بدأ يناوشان طفلتها الوحيدة.. فكانت تفزع إلى الله والقرآن والرقية فتخرج من صلاة

لتدخل في تسبيح ومنه إلى تلاوة.. دونما شكوى، لا من القزمة والمارد ولا من المرض المزمن.

منذ زمن بعيد مات جدي "سي كمال" وماتت جدتي "ست سعاد"، وفارقتني حكايات عفاريتهم إلى الأبد، ولم يبقَ لي منهما إلا ذكريات مشوشة، ورؤياهما في منامي بين الحين والآخر ليذكراني بأيامهما فيأخذاني من أيامي اللاهثة الباردة التي ينقصها الكثير من العفاريت والمشايخ وأشباح الموتى الأحباء كي تستحق أن تعاش!

***

هل أنا كنت طفلاً

أم إن الذي كان طفلاً سواي

هذه الصورة العائلية

كان أبي جالساً، وأنا واقف.. تتدلى يداي

رفسة من فرس

تركت في جبيني شجاً،

وعلّمت القلب أن يحترس

أمل دنقل

الحورية

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾. صدق الله العظيم

وروى من طريق أبي مودود: سمعت الحسن قرأ هذه الآية ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ وقال: يكابد أمراً من أمر الدنيا، وأمراً من أمر الآخرة - وفي رواية: يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة.

***

حين أصيب أبي بمرض الموت، كان عليّ أن أتحدث إلى الله قليلاً!

يا رب..

اعذرلي إساءة الأدب مع جلالتك لكن.. الآباء لا يمرضون يا رب!

الآباء يشيخون.. يموتون.. هذا لك.. لك بتسليم مطلق وصمت لا ينتهكه إلا ذكر أسمائك ائتناساً وتصبراً.. لكنهم لا يمرضون يا رب.. لا يوهنون.. لا يضعفون أمام صغارهم.. الآباء كبار أقوياء واثقون حازمون قادرون.. الآباء لا يمرضون يا رب.. الآباء لا يثيرون الشفقة يا رب.. فلماذا إذن أمرضت أبي؟

طلسم مرض أبي على عقلي.. أتى ألم الشفقة الشنيع على قدرتي على الفهم وعلى كل محاولاتي لأن أتسع للقضاء والقدر راضية مستبشرة..

ذهبت إلى مسجد الإمام الحسين بالقاهرة أبث -كعادتي- حزني في حضن الضريح.. حين ضربت رائحة البخور حواسي أحسست كأنني ضيف مرحب به في رحابه فانتشيت!

توضأت في متوضأ السيدات، حيث عيون النساء يملؤها الفضول إزاء بعضهن البعض.. فعيون النساء تجيد بحق تفرس أجساد النساء حتى أكثر مما تفعل عيون أكثر الرجال شراهة!

قالت إحدى النسوة:

"إنتي مصرية؟ والنبي افتكرتك هندية.. عشان الحلق اللي في مناخيرك ده.. طب إيه لزومه الحلق طيب لما انتي مصرية؟!"

هممت بدخول المسجد، فزجرني أحدهم مشيراً لرأسي: "غطي شعرك كويس يا ست.. إنتي في حضرة السيد".. فارتبكت وسحبت الطرحة الحريرية السوداء العريضة على رأسي في محاولة لإحكامها حول شعري وعنقي.. مشيت على مهل كمن تقترب من حبيب مزّق الشوق إليه كبرياءها حتى وجدت نفسي في مواجهة الضريح.. أحنيت رأسي وابتسمت باكية..

كانت النساء من حولي يوزّعن الحلوى عليّ لسبب لا أدريه! لكني كنت أتناولها منهن في امتنان.. مدّت إليّ إحدى النسوة قصيدة حب في السيد الحسين قائلة بإنجليزية ركيكة:

- poetry... this poetry... Hussain... You read Arabic?

- تسلم إيدك يا ستي.

- لا مؤاخذة يا حبيبتي افتكرتك مش مصرية!

- لا مانا حاشيله خلاص الحلق اللي في مناخيري ده!!

بجواري كانت امرأة تتحدث إلى الضريح مملية على صاحب المقام بعشم حازم ما تريد لنفسها وأبنائها، فتسمي احتياجات ابنها الأكبر، ثم تطلب لابنتها الصغرى كذا، ولزوجها كذا وكذا، أما الابنة الوسطى فأنت تعلم أنها تحتاج كذا وكذا.. فجأة صمتت السيدة متفرسة في وجهي فقرأت حزني وجزعي.. ثبّتت عينيها على ملامحي طويلاً، ثم نظرت إلى ضريح السيد الحسين قائلة، بينما تشير إليّ بإصبعها:

- "وهي كمان.. اللي جنبي دي.. زيح عنها.. أنا ماعرفش إيه اللي مزعلها.. بس انت أكيد عارف.. ارفع انت عنها بقى!"

ثم عاودت إملاء طلبات عيالها على الإمام دون أن تنشغل بي أكثر: "وزينات.. زينات تخلّف بقى كفاياها كده. يا سيدنا.. يعني حتعيش وتموت من غير حتة عيل ياخد بخاطرها طيب؟!".

كادت تضحكني المرأة بعشمها وتلقائيتها.. لو أن همي كان أكبر من أن أضحك معه.

بينما أشكو بثي وحزني إلى الله في صمت، جاءتني الحورية!

نعم.. حورية!

فتاة لم أر في حسن طلتها.. بسومة الوجه رقيقة المشية واسعة العينين ينحسر غطاء رأسها عن شعرها المنسدل قليلاً، فيزيد وجهها حسناً.. أقبلت عليّ دون مقدمات بوجه فرح كمن لقيت صديقة قديمة ثم قالت:

- تعالي معي!

كان في صوتها وعد بشيء طيب.. بدت كما لو أنها برزت من حيث أول الوجود.. ناشئة الخلق.. لا بد أن أمنا حواء كانت لها طلة كهذه!

فكرت بطفولة أنها ستأخذني إلى وادٍ بعيد بعيد يغتسل فيه الحزانى بماء الورد وشراب القرنفل، قبل أن يعودوا إلى أرضهم مسروري الخاطر.. هكذا فكرت فلم أجادل ولم أسأل أين ولا لم.. فقط تبعتها صامتة لأرى ما تعدني..

صحبتني الحورية إلى حيث باب خشبي عملاق في ظهر مسجد الإمام الحسين، وقالت: الآن يوافينا ناجي.. ناجي معه مفتاح مقصورة السيدات.. سأصحبك إلى حيث نحضر معاً مجلس عشق.. ستفرحين الليلة كما لم تفرحي من قبل.. هذا وعدي لك.

ثم منحتني ابتسامة من تلك التي لا تمنحها إلا الأمهات.. وحدهن الأمهات قادرات على منح هذا النوع من الابتسامات..

***

بدونك لا الحياة تحلو لي.. ولا حتى الموت،

فكيف أدير القلب عن أحزانه فيك..

وبدونك ليس ثمة وجود لشيء؟!

جلال الدين الرومي

لم أسأل الحورية عن اسمها، ولا حتى من أين جاءت باسمي الذي كانت تناديني به بهدوء كما لو كانت تعرفني منذ ميلادي! كنا ننصت إلى المدّاحين وكنت أختلس أنا النظر إليها، وقد جلست بهية مالئة المكان بعبق غامض وسحر شفاف..

يا لائمي في الهوى العذري معـذرة مني إليك ولو أنصفت لم تلُـمِ
محضتني النصح لكن لست أسـمعهُ إن المحب عن العذال في صَممِ

قالت الحورية معقبة على الأبيات التي كان المداحون ينشدونها:

العاشق يألم أكثر من سواه.. العشاق كائنات بائسة.. هل تعرفين هذا النوع من العشق؟ هل تفهمين ما يقول المداحون؟

لم تنتظر جواباً مني، وقد رأتني مأخوذة مبهورة الأنفاس غير فاهمة تماماً من أين أتتني هي، ومن أين برز هؤلاء المداحون، ومن أين وفدت أصواتهم الساحرة، فأخذت تفصل لي في معاني الأبيات بابتسامة عارفة واثقة.. بعدها استأذنت الحورية بابتسامة ثم مشت في خفة.. تلفتّ حولي بعد أن همت بالانصراف بثوانٍ فلم أجدها.. كانت الحورية اختفت.. للأبد!

لكني كنت لحظة اختفائها قد برِئت من الألم الذي كان ينحر صدري.. كنت أطيب حالاً وأصفى نفساً بحيث لم يعد يعنيني حقاً ماهيّتها..

حورية أو جنية أو عروس البحر أو ملاك حارس.. لا يهم.. المهم أني عدت لمنزلي أقدر على ملازمة أبي في نزعه الموجع.

بل زدت وصحبت معي طبقاً من الكنافة المحشوة بالكريمة.. بابا.. فلتودّع هذه الحياة بشيء من سرور الخاطر يا حبيبي.. خذ من يدي قطعة من الكنافة المحشوة بالكريمة!

***

وقد ذكر زكي مبارك في كتابه "المدائح النبوية" أن الإمام البوصيرى لما أنشأ هذه القصيدة رأى النبى في المنام، فأنشدها بين يديه إلى أن بلغ قوله: "فمبلغ العلم فيه أنه بشر ثم توقف، ولم يتمكن من إكمال البيت، فأكمله له النبى في الرؤيا فقال له: قل: "وأنه خير خلق الله كلهم".

ماسبيرو

لم تكن أحلام أبي -رحمه الله- عريضة، ولا الأشياء التي اشتهاها أو تطلع إليها كثيرة ولا باهرة ولا هم يحزنون.. بل كانت عناصر حياتية تتناسب في سذاجتها وبساطتها وطيبتها مع وجدان فتى ريفي عرف عيشة المدن متأخراً.

كان مثلاً يتمنى لو جاد زمان صباه بتعليمه العزف على آلة موسيقية ما، لكن فقر طفولته لم يَجُدْ بها فاكتفى الرجل الضحوك بذكريات "حصة الموسيقى" الهزيلة التي كان يحضرها في مدرسته الريفية المزرية:

"والواد زميلنا عبد الكريم الله يرحمه، كان بيستغل إن أستاذ الموسيقى راجل كبير في السن وذاكرته تعبانة.. فكان عبد الكريم في كل حصة موسيقى ولما يسأل الأستاذ عن كراسات الموسيقى يقول له: يا أستاذ.. يا أستاذ.. أنا اشتريت كراسة موسيقى واتسرقت من الدرج. فيتعاطف معاه الأستاذ المسن ويقوله: معلش يا ابني اقعد مكانك وربنا يعوّض عليك.. وكل حصة على ده الحال.. نفس القصة.. يا أستاذ يا أستاذ أنا اتسرقت.. معلش يا ابني.. يا أستاذ يا أستاذ أنا

اتسرقت.. معلش يا ابني.. لحد ما كان يوم استعاد فيه أستاذ الموسيقى الذاكرة مرة واحدة فبص لعبد الكريم وقال له: انت يا واد اسمك عبد الكريم؟ مش انت بتاع الحصة اللي فاتت؟ هو انت بتتسرق كل حصة يا واد انت؟ انت كداب ابن كداب ابن كداب"

كان يحكي الحكاية ويضحك في كل مرة مكرراً المقطع الأخير منها "ابن كداب ابن كداب ابن كداب"، هكذا بصوت مجلجل حتى تدمع عيناه من الضحك، ويترجرج بطنه المتكور فأضحك للحكاية وأضحك أكثر لضحكه هو عليها.

كانت ذكريات حصة الموسيقى المضحكة المثيرة للشفقة هذه هي كل ما يربط أبي بعالم الموسيقى في الغالب.. ولست أنا أكثر ارتباطاً بها منه على أي حال.

وكان أبي يحب السفر، ويجد فيه مشقة لذيذة، وكان يحكي لي مأخوذ الأنفاس كطفل في محل اللعب عن انبهاره بالطائرة، ذلك "الجسم المعدني الضخم المحلق الذي ينهب السماء نهباً من نقطة إلى نقطة" ويحكي لي عن انبهاراته واندهاشاته الأخرى الكثيرة بالأجهزة المستحدثة هنا وهناك وبلهجات العرب وأنماط معايشهم المختلفة؛ إذ احتك بهم في غربته، وعن اشتياقاته الموجعة لأبويه وعن الشجرة الهزيلة التي زرعها هو وأبوه أمام دارهم في قريتهم الفقيرة وعن افتقاده لي وإخوتي.

لكنه ما كان يحكي لي أبداً عن انهزاماته.. انكساراته.. انتكاساته.. آلام الأمراض الكثيرة التي استوطنت جسده لسنوات. كلها كانت تكفيه وحده وتخصه وحده.

منذ أن فارقني أبي لم يعد يروي لي أحد عن انهاراته واشتياقاته واندهاشاته وحكايات حصص الموسيقى المضحكة..

وانطمست الصورة المتخيلة في ذهني للشجرة الهزيلة التي زرعها هو وأبوه أمام دارهما "في البلد"

ولم يعد ثمة ما يربطني بعماته وخالاته، النسوة البدينات المبتسمات دائماً ذوات الجلابيب المزركشة واللاتي لم أكن أراهن إلا لماماً حين يقرر هو أن يحل ضيفاً على قريته ليقرأ الفاتحة لأبيه وأمه في قبريهما.

مذ رحل أبي لم يعد يعنيني البث المباشر لصلاة الفجر الذي تذيعه القناة الأولى في أيام رمضان؛ لأنه كان شريكي الوحيد في الجلوس أمامه والتغزل في أصوات المنشدين والمداحين..

الأكثر قسوة أنه منذ رحيله، لم تعد بي رغبة لأن أكمل العمل في ماسبيرو، حيث عمل هو قبل أن يورثني مكانه في قطاع الأخبار.. لم أعد أحتمل السير في طرقات مبنى ماسبيرو الطويلة المعوجة المعتمة عطنة الرائحة، ولا الاحتكاك بموظفاته البدينات اللاتي تفوح منهن روائح هي مزيج من العرق والقهوة ومساحيق التجميل الرديئة والرغبات المؤجّلة.. كنت على مدار سنوات ثلاث قد تشبّعت بنميمة الزملاء على بعضهم البعض، وغيرة الزميلات من بعضهن البعض،

وبحكايات الحب الفاشلة التي شهدتها أروقة المبنى والتي كانت تتناقلها الألسنة بنهم مقزز.

لم أعد أحتمل الوقوف أمام المصاعد الكهربية المتكدسة بأكوام اللحم البشري دائماً، ولا السير عبر الطرقات المعوجة للمبنى التي كنت ألتقي فيها باستمرار وجوهاً مألوفة الكآبة والثقل، ولا عدت أحتمل إجراءات الأمن السخيفة على بواباته الكثيرة كأنك دالف إلى منشأة استخباراتية منيعة.

ماسبيرو.. أحد بقايا حلم الستينيات الثوري، وأحد الأوجه البغيضة للحكم في مصر منذ افتتاحه قبل عقود.. حلم لا يزال شيء ما من رائحته عالقاً بحوائط استوديوهات المبنى الضخم.. رائحة لا تشمها إلا في استوديوهات ماسبيرو

ماسبيرو.. حيث تصطرع مترجمات الأخبار رديئات اللغة على مغازلة رئيس التحرير الأربعيني فضي الشعر متكور البطن الظريف المتظرف، وحيث يتقاتلن أمام مكاتب المديرين ورجال الشئون القانونية وشئون العاملين من أجل أحقية السفر إلى دمشق لمدة يومين فقط.. أيام كانت دمشقُ دمشقاً!

ماسبيرو.. حيث يمر حسين فهمي في إحدى الطرقات فتتغامز الموظفات ويسري التوتر اللذيذ بينهن لأيام عقب مروره "يا خواتي.. قمر.. والنبي يجنن.. شوفتيه يا عواطف؟ مابيكبرش ابن الإيه!".

ماسبيرو.. حيث أحبني "منصور"، عامل البوفيه!

لم يكن يؤنسني في ماسبيرو أكثر من ابتسامة منصور، الشاب الريفي ذو العرج الخفيف والابتسامة الخجلى، والذي كان يهتمّ أيما اهتمام بأناقته وتصفيف شعره الكستنائي، بحيث يبدو دائماً كبطل فيلم رومانسي رديء!

كان "منصور" يحبني في صمت وكبرياء، عالماً بأنه لن يكون بيننا أكثر مما هو كائن، وكانت طريقة تعبيره الوحيدة عن ذلك الحب الخبيء هو إعداد أقداح القهوة المضبوطة وأكواب النسكافيه المُحلى من أجلي.. مجاناً بالطبع!

والحقيقة أني كنت ممتنة بعمق لمنصور بمشاعره المترددة الخجلى نصف المحتجبة نصف الظاهرة، ولأكواب النسكافيه وأقداح القهوة التي كان يعدّها لي بنفسه وبسخاء طيلة دوام عملي، وودّه الصادق حين كان يقول لي: "والله انتي عندي حاجة كبيرة أوي يا آنسة"

كانت ذكريات أبي وشبابه المهني في المبنى الضخم المعتم ولوزية عيني منصور هي كل ما يبقيني على الاستمرار في المشي الوئيد في طرقاته نصف الدائرية الطويلة كل يوم، أما الآن وقد رحل أبي وبدأت ذكرياته في التآكل، فلم تعد لوزية عيني منصور ولا تصفيفة شعره الكستنائي يكفيان للاستمرار.

في صبيحة يوم خريفي قررت أنه قد جاء اليوم الذي سأدع فيه مبنى ماسبيرو ورائي إلى الأبد. مررت يومها بصالة الأخبار، ألقيت تحية الصباح على الصحفي اللزج الذي كان يرأس التحرير، والذي بادلني

التحية باقتضاب إذ كان منشغلاً بمتابعة تفجيرات متعاقبة في بغداد، فتركته لتفجيراته، ومررت أسترق السمع سريعاً لحديث المترجمات فوجدتهن يتبادلن حديثاً ساخناً صاخباً عن إحدى الرسائل الواردة لبريد الجمعة في ذاك الأسبوع من رجل يعتزم أن يتزوج للمرة الثانية، فتركتهن يصببن لعناتهن على جنس الرجال بأكمله، وتسللت دون أن ألفتهن لوجودي متوجهة لمكتب رئيسي المباشر..

مدام "اعتدال" خمسينية متصابية تحاول طيلة الوقت إقناع الجميع بأن شعرها أشقر، وبأن قوامها المنتفخ أرشق مما يبدو عليه!

لم أطل الحديث مع مدام "اعتدال" على الأقل خشية أن يفلت مني تعليق أرعن ما على صبغة شعرها المبالغ في ذهبيتها، ولأني كنت أتشوق للحظة تحرري من أسر ماسبيرو وأتلهف لقطع علاقتي بالمبنى وكل الوجوه التي تجعدت على أعتابه. قلت لمدام اعتدال دون مقدمات إني لن أظهر في المبنى بعد الآن، وإنه لا صبر لي ولا طاقة لاحتمال أية إجراءات بيروقراطية من أي نوع.. "فقط سأختفي.. سلامو عليكو"..

ويبدو أن مدام اعتدال لم تعتد أن يتوجه موظف ما إلى مكتبها بحديث الاختفاء و"السلامو عليكو" المحسوم هذا، ذلك أن مزيجاً من عدم الفهم والذهول بدا على وجهها! ربما هدد البعض، في خبرتها، بالاستقالة، وربما هددت هي البعض بالفصل أو الإيقاف عن العمل مرات، لكن أن تأتي إليها موظفة شابة قائلة بحسم إنها بصدد الاختفاء النهائي بغير أسف ودون اتخاذ إجراءات إدارية من قبيل "حفظ

الوظيفة" في الوقت الذي يتقاتل الآخرون كي يتم تحويل تعاقدهم من مؤقت إلى دائم. فهذا أمر غير مألوف ولا مفهوم بالنسبة لها.

حاولت مدام اعتدال أن تثيبني إلى رشدي. شارحة لي كيف أن توقفي عن العمل واختفائي سيؤديان حتماً لفصلي إدارياً بصورة نهائية. فظللت مبتسمة حتى أنهت حديثها الشارح لكارثية وضعي. ثم قلت بهدوء أمام وجهها المتقلص: أعلم كل هذا.. فقط جئت لأودّعك.. سأرحل ليس فقط عن ماسبيرو. بل عن مصر.. لم أعد أحتمل الاشتباك مع الحياة هنا.. سلامو عليكو!

تركت مدام اعتدال خلفي مشوشة تهرش شعرها المصبوغ. وتوجهت إلى الكافيتريا لألقي نظرة أخيرة على منصور.. كان يقف كما كان في كل يوم من أيام السنوات الثلاث الماضية. يعدّ أقداح القهوة والنسكافيه وشعره الكستنائي مدهون ومصفف بعناية. وقد ارتدى الجينز الأزرق والقميص الكاروهات الأحمر الضيق. فبدا كأنما خرج لتوه من فيلم مصري من إنتاج السبعينيات!

لم أشأ أن ألفته إلى وجودي.. لم يكن لديّ ما أقوله له. على الرغم من كل الامتنان الذي حملته بداخلي له ولأقداح قهوته التي تناولتها على مدار سنوات ثلاث دون كلل منه ولا إقلاع مني.. فقط ألقيت عليه نظرة طويلة أودعتها الكثير من المودة والامتنان.

تركت بعدها ماسبيرو بذكرياته القبيحة ومعاركه المقززة وراء ظهري. وركضت شاعرة بالتحرر..

سأرحل.. سأخوض انهاراتي واشتياقاتي الخاصة كما كان لأبي أن يخوض انهاراته واشتياقاته الخاصة..

في الأيام التالية وعلى عجل أنهيت أوراق سفري إلى الدنمارك، حيث وجدت فرصة عمل في إحدى منظمات العمل الإنساني والإغاثي. ثم أنهيت في هدوء تجربة حب موجعة عشتها لعامين زخمين مشحونين بكل الأعاصير الشعورية المتاحة لوجدان إنساني مع رجل صعيدي ناصري فارع القامة كان يكبرني بعشرين عاماً. ويعرف أني لست له وأنه ليس لي.

ابتاع لي الصعيدي الناصري شكمجية مشغولات فضية وروايات كثيرة لروائيين من الشرق والغرب لتكون في حقيبة سفري؛ خشية أن ينسينيه السفر الطويل، فقبلت التذكار السخي واعدة بألا أنسى..

قال "الصعيدي الناصري" يوم ودّعته: هل تعلمين يا صغيرتي لم كان الاستعمار الفرنسي هو الأخطر على مر التاريخ الإنساني؟ لأنه كان استعماراً "ليناً". يبدأ من العقل.. فبينما أنهك الإنجليز مثلاً في إنشاء الكباري والمباني والمؤسسات في مستعمراتهم كي يحكموا إدارتها، انهمك الفرنسيون في حقن ثقافتهم ولغتهم وأغانيهم في أعصاب ووجدان شعوب مستعمراتهم. وبعد أن رحل الفرنسيون ظلت الفرنسية ها هنالك.. أنا استعمرتك على الطريقة الفرنسية.. أنا شكّلت عقلك ووجدانك مع كل رواية وديوان شعر قرأته لك.. فطيري إلى أي أرض شئت، مردّك لي!

لملمت حقائبي بعدها، ودسست فيها شكمجية الفضة والروايات الكثيرة ومصحف أمي ومسبحة أبي، ثم ضممت أمي إلى صدري في موجة بكاء طويلة قبل أن أتوجه إلى مطار القاهرة.

***

تتشابهُ حقائبُ السفر

التذاكرُ

المطاراتُ

وليالي الوحدة

سوزان عليوان

ترانزيت

مطار شيفول، أمستردام..

كان علي أن أقضي ست ساعات ترانزيت في ذاك المطار الفسيح.. صالات كثيرة، وغرف ومكاتب وموظفون شقر ذوو عيون زرق، ومسافرون على كل لون، ومصاعد كهربية، وأبواب زجاجية دوارة وأخرى منزلقة، ولوحات دعائية جدارية عملاقة..

غرفات صغيرة مجهزة للتعبّد، وأخرى للتأمل، وأخرى للتدخين، ومصاعد مخصصة لذوي الاحتياجات الخاصة، وعربات داخلية لنقل المسافرين المسنين من بوابة إلى بوابة داخل المطار..

قرأت أن روائياً فرنسياً -لا أذكر اسمه- كتب رواية عملاقة تدور أحداثها بالكامل خلال يوم قضاه الروائي ترانزيت في هذا المطار الشاسع البارد!

لا!

لست أريد أن أقضي هنا أكثر من ساعاتي الست المقررة، ولتذهب روايات الأرض جميعاً إلى الجحيم!

يا الله.. ست ساعات لي وحدي في هذا المكان البارد الصاخب بين الـ"هنا" و الـ"هناك"

جلست أقلب عيني بين الوجوه المستعجلة القلقة وتلك الأخرى الناعسة المنتظرة، وبين الملابس الحشمة والأخرى الخليعة.. نساء مسنات عصبيات وأخريات شابات تضجّ وجوههن بحيوية ضاحكة.. رجال عابسون يقرأون كتباً مجلدة ملوّنة عن فنون إدارة الأعمال ومهارات العرض والتقديم، أسر يبدو من ملبس نسائها أنها من خلفيات مسلمة.. رجل بمظهر عربي، مصري على الأرجح، يجلس في ركن قصي وقد خلع حذاءه تحت مقعده، واستسلم لنوم عميق..

مللت تأمل الوجوه تلك فأخذت أتقافز بين محلات المنطقة التجارية الحرة فابتعت خرطوشة سجائر أجنبية الصنع والكثير من الشوكولاتة، وزجاجة عطر تفوح بالأنوثة والبهجة، ونظارة شمس جعلتني أبدو كنجمة تنتمي لسينما الخمسينيات، أو هكذا أحببت أن أتصور، ثم جلست بعدها أحتسي قهوة الاسبريسو فائحة الرائحة وأطالع عدداً قديماً من أعداد جريدة "أخبار الأدب"

استوقفتني قصة قصيرة يرويها رجل وظيفته أن "يكسر نفس الرجالة" ممن يُحتجزون داخل قسم الشرطة في قريتهم بأن ينتهك أعراضهم! اشمأزّت نفسي مع السطور الأولى للحكاية حتى دارت رأسي وكدت أقيء، فألقيت بالجريدة في صفيحة القمامة ملقية معها روائح القاهرة وحكايات أماكن احتجازها..

قمت ثانية أتسكّع في المطار الشاسع خائفة أن أتيه بين جنباته فتفوتني الطائرة، فكنت أتلفّت حولي وأراجع تذكرتي وجواز سفري كل عشر دقائق، تماماً كقروي يزور القاهرة للمرة الأولى في عمره بمفرده، فيطبق ذراعيه على حقائبه ويسأل المارة عن رصيف قطاره مائة مرة في الدقيقة!

بينما أتجول في المطار كان يطاردني انعكاسي على واجهات المحال التجارية وأبواب المطار، فكنت أتجنب مطالعة هذا الانعكاس البائس.. كنت أبدو بحزني وثقل خطوي ووزني الزائد وغطاء رأسي كامرأة تكبرني بعقود..

جلست على طاولة صغيرة في أحد الأركان أتأمل انعكاسي على البوابة المواجهة، ثم مددت يدي في هدوء لأخلع حجابي وأدسه في حقيبة يدي غير عابئة بالنظرات المتسائلة الدهشة من حولي..

عيون زرق كثيرة تتأملني في دهشة حتى لأكاد أسمع أصحابها يقولون أشياء من قبيل: أليس هذا هو الحجاب الذي يكتبون عنه في الدوريات المتخصصة في دراسات الشرق الأوسط؟! كيف خلعته هذا الشابة المخبولة بهذه البساطة؟ ترى ماذا يفعلون بها في بلادها حين يعلمون بخلعها الحجاب؟! هل يصلبونها؟ يرجمونها؟ هل يعلم أحدكم ما عقوبة خلع الحجاب في بلاد المسلمين؟

من بين العيون غمزت لي عين رمادية باسمة لرجل مسن، وكأنما يقول لي: "هكذا أنت أحلى!"، فابتسمت له ابتسامة خجلى، وغادرت مرتبكة إلى بوابتي المنشودة.

أغنية المسافر للمسافر:

لن أعود، كما ذهبت،

ولن أعود.. ولو لماما!

محمود درويش

كاميلا

في العاصمة الدنماركية كوبنهاجن أقمت في بناية منهكة في حي "نابرو" الذي تسكنه أغلبية عربية في قلب المدينة..

قالت لي "كاميلا"، زميلة السكن الدنماركية اليسارية التي علمت فيما بعد أنها لا تحيض أبداً (!) إن الدولة أسست هذه البنايات الكئيبة في الستينيات لتسكنها فئة العمال مقابل أجرة سكن بخسة.

"لذا تجدينها قبيحة متشابهة متهالكة.. ولذا نسكنها نحن الطلبة الفقراء.. وأنتم أيها الوافدون من الشرق الأوسط!"

هكذا قالت "كاميلا" بابتسامة لا تتناسب مع قسوة ما تقول.

كاميلا، ذات الوجه الطفولي البضّ والشعر البني الأملس القصير، تمارس العمل العام بحرارة ككل اليساريين في كل بقاع المعمورة.. تحنق على الدولة وعلى الخصخصة وعلى الحدائق الغنّاء التي بنتها الدولة على الخرابات التي كان يسكنها -يا ولداه- المشردون من الجيبسي الوافدين من أوروبا الشرقية.. تغضب وتحنق وتعارض كما ينبغي بحق!

كاميلا، التي تبدو فاتنة حين ترتدي الجونلات القصيرة (المايكرو جوب) مع الشراب الفيليه الأسود والحذاء العالي، وترفع شعرها لأعلى. كانت تتعاطف مع المومسات، خاصة ملوّنات البشرة منهن، وتدافع بحماسة عن حقوقهن في الرعاية الطبية وفي حماية الشرطة. وكانت تلقي بنفسها في أية مظاهرة موضوعها قضايا البيئة وحرية المثليين جنسياً. وكانت تشتبك بشراسة لا تتناسب مع وداعة ابتسامتها مع أي رجل شرطة دنماركي تسوّل له نفسه أن يستخدم العنف ضد الطلاب المسلمين المعتصمين، مطالبين بإلقاء باراك أوباما في الأطلنطي!

كاميلا كانت تدرس علم النفس، وكانت متطوعة للعمل في دار للمعاقين والمتأخرين فكرياً، تدرس أحوال نفوسهم وعقولهم وتساعدهم على التبول والتبرز وتحاكيهم عن مشكلاتهم الصغيرة والكبيرة، شاكرة في كل لحظة "الطبيعة الأم" على أن منحتها العافية!

كاميلا من أسرة بسيطة من ريف الدنمارك لا تقدر على أن تفي باحتياجات فتاة يافعة متهورة طموح مثل كاميلا.. لذا فإن كاميلا تنظف المكاتب وتمسح أرضيات البيوت المترفة في العاصمة الدنماركية مقابل شهرية تكفي لشراء علب التونة والمكرونة والتبغ والخبز.. أما الحقائب الأنيقة والسترات الجلدية باهظة الثمن، فيكفي أن تستعيرها من زميلات السكن.

كاميلا كانت منهكة.. لكنها تضج بالحياة..

كاميلا كانت تسهر معي حول الشمعدان النحاسي الضخم في صالة البيت لنثرثر بينما نحتسي الشاي الأخضر الصيني. طالت أوقات مسامراتنا بوجه خاص بعد أن هجرها حبيبها في ليلة شتوية كئيبة: إذ ملّ من الركض وراءها في التظاهرات وأقسام شرطة الدنمارك.

لم أدخل قسم شرطة في مصر أبداً، ولست أظن أني أحب أن أفعل.. لكني دخلت إلى قسم شرطة دنماركي كي أبلغ عن جواز سفري المفقود. فقوبلت بوجه شرطي بعينين زرقاوين وسيعتين، طمأنني بلغة إنجليزية غير ملكونة بعد أن سجّل لي محضراً بالواقعة، ناصحاً إياي بسرعة التوجه إلى سفارة بلادي لاستخراج جواز جديد. لم تكن تجربة مخيفة ولا شيء، باستثناء منظر رجل أسود مخمور كان محجوزاً بهذي في خلفية ذي العينين الزرقاوين بلغة لم أفهمها.

على أي حال لم يحتمل حبيب كاميلا حماستها الزائدة، فقرر أن يرافق صديقتها ذات الساقين الطويلتين!

"الرجال كلهم أوغاد.. لا تظني أن الرجال الشرق أوسطيين فقط هم الأوغاد! لا عزيزتي.. كلهم أوغاد.. وكلهم يحبون الفتيات الحسناوات ذوات السيقان الطويلة.. أما مثيلاتنا من متوسطات الجمال فلهن أنفسهن.. أنا أحمي نفسي وأحنو عليها كما تحدب الأم على وليدها وتحنو عليه.. اعتني بنفسك.. كوني صديقتك المفضلة وحبيبتك الأقرب، وتذكري دوماً: في جهنم مكان ما مخصص للنساء اللاتي تقسون على غيرهن من النساء"

وكانت كاميلا تعرف أشياء كثيرة لا أعرفها.. أشياء من تلك التي تعرفها الأمهات والجدات وحدهن!

مثلاً هي عرفت أن تورّم وجهي المستمر والزرقة المحيطة بعيني طوال الوقت كان بسبب الوسادة التي أنام عليها.. فالوسادة محشوّة بريش النعام الذي يبدو أنه يثير حساسية ما في جسدي لم أكن أعلم عنها شيئاً من قبل.. وكيف لي أن أعرف وأنا لم أنم من قبل على ريش نعام؟! أنا مصرية أيها الدنماركيون أنام على وسادات محشوة بقطن الأرض الطيبة.. ذلك الذي صُرع محمود المليجي متمسكاً بأطرافه، بينما يجرّه الفرس إياه في فيلم "الأرض"

"من الآن فصاعداً ستنامين على وسائدي القطنية، وسأستعمل أنا وسائدك المحشوة بريش النعام.. لا تنزعجي!"

هكذا وببساطة اختفى التورم والهالات الزرقاء المخيفة حول عيني!

كذلك عرفت كاميلا من مظهري المبعثر وعبوسي شبه الدائم أن غياب الشمس لأسابيع طويلة عن سماء الدنمارك كان سبباً في إصابتي بالاكتئاب الموسمي، وأن اضطرابات نومي وكوابيسي وثقل حركتي كلها أعراض لغياب الشمس عن جسد اعتاد أن تلهبه شمس شرق أوسطية ساطعة على مدار العام.

"سوف نزيد إضاءة غرفتك وأعيرك ستائري الخفيفة.. وغداً نبدأ في طلاء غرفتك بالطلاء الأبيض.. هكذا يتبدد إحساسك بالبرودة وافتقاد الشمس لحين يحل فصل الربيع.. لا تنزعجي!".

وهكذا تراجعت أعراض اكتئابي الموسمي، وانتظم نومي، واستعدت قدراً من حيويتي خلال أيام..

كم كانت كاميلا رائعة.. كم كانت تضج بالحياة وتملأ الدنيا بذرات كيانها المتحرك المتحرر. كم كانت قادرة على خوض معاركها حتى النهاية دون انكسار.

وكم كان فقد كاميلا هائلاً حين ماتت!

نعم ماتت كاميلا.. لم يحتمل جسدها الصغير كل ما كانت تموج به نفسها.

ماتت كاميلا في بلدتها الريفية أثناء إجازة قصيرة كانت تطل خلالها على جدتها البالغة من العمر تسعين عاماً!

ماتت كاميلا في فراشها الريفي في هدوء، ودون أن تترك لي تفسيراً واحداً لموتها المفاجئ.. ماتت ميتة وادعة لم تبدُ لي متناسبة مع عيشتها.. فقد كان لكاميلا خطط أخرى غير الموت في ربيع عمرها، وقطعاً غير الموت الملّ في فراش في الريف.. لكن يبدو أن خطط الله لحياتها لم تكن متماشية مع خططها.

قبل موتها بيومين هاتفتني كاميلا من قريتها وقالت ضاحكة كطفلة لا تعي تماماً ما تقول: "داء ألزهايمر أكل ما بقي من عقل جدتي.. لم تعد تذكرني هل تصدقين؟ الأدهى أنها حين تغضب من جدي تخلع سروالها الداخلي وتتبرز في أي مكان وأمام الجميع؛ احتجاجاً على ما لا تحب! كم أحسد قدرتها على أن تفعل ما تشاء وقتما تشاء!".

ضحكنا كثيراً يومها.

لابد أن كاميلا ماتت ضاحكة!

لست أخالها عابسة في تابوت الموتى الخشبي هذا.. لا بد أنها مسجّاة ها هناك بشرتها بلون ما بين الصفرة والزرقة ككل الموتى، عدا أن وجهها مزهر بابتسامة مرحة تنسيك التابوت ومراسم الجنازة الكنسية ونحيب نساء العائلة جميعاً!

بعد موت كاميلا وجدتني أتسلل إلى غرفتها لأسرق كتاباً كُتب باللغة الدنماركية ودبوس شعر لامع اعوجّت أطرافه وقلم رصاص رخيص.. هذا هو كل ما تحوي خزانتي برائحة كاميلا.

***

تقول الميثولوجيا الاسكندنافية إن "أودين" كبير الآلهة في الأساطير الاسكندنافية، تدلى من شجرة العالم لتسعة أيام معلقاً برمحه، وعند مياه نهر ميمر المقدس تخلى عن إحدى عينيه ليحصد حكمة العصور. وكان "أودين" قادراً على حمل الموتى على الكلام ليستقي من حكمة حكمائهم.

هيلينا

في "نابروجادا" كنت أبيت في الغرفة التي كانت تسكنها قبلي "هيلينا" الدنماركية العصبية والمدخنة الأكثر شراهة في خبرتي، والتي هي نفسها مالكة البيت الذي استأجرت غرفته تلك.

غرفة "هيلينا" كئيبة ومظلمة.. خشب الأرضية يقرقع تحت حذائي كما في أفلام الرعب الرديئة.. زجاج النافذة العملاقة القديمة مغطى بقماش ملون يلقي ظلالاً مخيفة في داخل الغرفة..

فوق الفراش معلقة مبخرة شرقية الزخارف. تأخذك إلى أرض الأساطير الفارسية. غير أنها صدئة كمصباح قديم مسكون بجني كسول!

الأرفف الخشبية الكثيرة المثبتة على الحوائط متخمة بتماثيل سوداء إفريقية الطابع التي توحي للناظر بأن صانعها قد نحتها إما لغرض العبادة أو ممارسة السحر الأسود!

"زيء.. زيء.. زيء"

صوت قرقعة الأرضية تحت حركة قدمي كاد يحطم أعصابي فجلست حافية على السرير أتأمل المكان..

هذا مكان موحش..

المدفئة لا تعمل، ودرجة الحرارة ثلاث درجة مئوية (الحرارة فوق الصفر.. إنه يوم دنماركي صحو!) والمدينة جُلّها صامتة صمت الليل الأوروبي الثقيل (وحدهم العرب يوقظون شوارع هذه المدينة لتصخب معهم حتى وقت متأخر)..

من حين لآخر تمر تحت شباك غرفتي سيارة سريعة تنبعث منها موسيقى heavy metallic من تلك التي تُشعرك بأنك متوتر كشخص متأخر على موعد في غاية الخطورة وعليه أن يهرع إلى مكان ما فوراً!

كنت في كل ليلة أندسُّ تحت الغطاء الثقيل، محاولة اصطياد أحلام غير كابوسية..

بالله أنّى يؤاتيني النوم وكل هذه الكائنات الإفريقية العاجية تتأملني؟!

ألم يكن في هذه المدينة سوى غرفة "هيلينا" يا ربي؟!

****

ماما زمانها جاية.. جاية بعد شوية.. جايبة لعب وحاجات!

أغنية لمحمد فوزي

***

"هيلينا" حزينة ولديها مخاوف وجودية تنهشها نهشاً..

فـ"هيلينا" شارفت الأربعين من عمرها، ولم تواتها الفرصة لتكون أُمّاً.. فقد انشغلت باستكشاف الشرق الأوسط ودراسة اللغة العربية والوقوع في غرام الرجال المصريين ذوي البشرة الخمرية الدافئة

لسنوات قبل أن تفاجأ بأن عليها أن تعود لأرض الوطن لتنجب قبل أن ينقطع طمثها!

"سيأتي عليّ يوم أعجز فيه عن أن أكون حبلى.. أنا أكبر.. أنا أفنى.. سينتهي بي الحال كهاته العجائز في دور المسنات واللائي لا يفتقدهن أحد على وجه البسيطة.. لن تنفعني ساعتها أسفاري للشرق الأوسط، ولا دراستي للغات الشرقية، ولا مغامراتي العاطفية مع الرجال المصريين الجذابين.. بل سأصير كتلة نكدة من الجلد يكسو عظاماً هشة تنتظر الرقدة الأخيرة"

هكذا جاءتني هيلينا تنتحب في ليلة شتوية قارسة البرودة، طالبة أن تقاسمني غرفتها.

كانت ليلتها قد أنذرته: "إما أن تهبني طفلاً أو نفترق إلى الأبد"

هيلينا عثرت بالفعل على رجل دنماركي يصلح لأن تنجب منه طفلاً أبيض بضاً تغيظ به أختها التوأم التي اختارت لنفسها الاستقرار في إحدى الجزر ريفية الطابع في جنوب الدنمارك، وكوّنت أسرة كبيرة تباهي بها أمّهما نساء العائلة.. المشكلة أن حبيب هيلينا يحب في هيلينا انطلاقها وحيويتها وتجوالها المستمر في أرض الله الواسعةً ولا يخالها أمّاً مملة تجلس في ركن الغرفة تغزل ملابس صوفية لأجل مولود منتظر..

قضيت الليلة أدعو أن يهدي الله الفتى الأشقر لهيلينا، وألا يبخل عليها بحيوان منوي فعال ونشيط يلقح بويضة بنت حلال، لينجبا سوياً طفلاً يُسكن مخاوف هيلينا الوجودية..

سيكون مصيراً مأساوياً إن هما افترقا.. ليس لأن هيلينا، حينها، ستخطو أولى خطواتها نحو الفناء المحتوم.. ولا لأن مآلها سيكون كتلة نكدة من الجلد يكسو عظاماً هشة تنتظر الرقدة الأخيرة كما قالت.. بل لأن انفصالهما سيعني ببساطة أنه سيكون عليّ أن أجد سكناً آخر مقابل شهرية زهيدة في هذا الموسم المزدحم!

"نابروجادا" يا جنة المهاجرين والمغتربين الفقراء، لمَ لمْ تجودي بغرفة غير غرفة هيلينا؟!

***

لم تنصت لي السماء!

تأزمت علاقة هيلينا بصديقها الأبيض الطويل المتمسك بصورة شاعرية لحبيبته لا تعتريها الأمومة بكل متطلباتها المنهكة والمملة.

تصاعدت حدة التوتر بينهما، وكان عليّ في النهاية أن أغادر حجرة هيلينا؛ كي تستقلّ هي بحياتها من جديد، وتبحث عن رجل أبيض طويل آخر تحقق معه أسطورة أمومتها المعطّلة..

جاءت الليلة التي أمهلتني فيها هيلينا عدة أيام أبحث فيها عن سكن آخر، بينما نأكل سلاطة التونة بالجزر التي أعددتها لكلينا على طاولة

في ركنها تمثال قديم كئيب ومهمل للسيدة العذراء تبدو فيه حزينة مطأطئة الرأس.

"أنا آسفة، عزيزتي.. سيكون عليك أن تغادري غرفتي خلال أيام.."

قالتها ببساطة، ثم صمتت محنية رأسها في أسف.

صمتُّ لدقيقة، وأنا أتأمل تمثال السيدة العذراء الحزين ثم قلت، بصوت طفلة ضاعت من أمها في سوق مزدحمة: هل سيكون من السهل عليّ أن أجد مكاناً مناسباً خلال أيام؟

قالت: أوه عزيزتي، لا تجزعي.. نحن هنا من أجلك"

قالتها دون أن تزيد شارحة كيف لي ألا أجزع ولا كيف هي هنا من أجلي، وقد طردتني لتوها من غرفتها ليكون لي لا مكان على الأرجح سوى أرصفة المدينة المتجمدة هذه!

تأمّلت انهمار الثلوج من النافذة العملاقة القديمة متخيلة نفسي أجاور واحدة من هؤلاء الجيبسي المشردات على أرصفة كوبنهاجن وأطرافي على وشك التجمد، بينما أضع أمامي قيثارة خشبية أجمع في ثقبها العملات المعدنية التي يجود بها الطيبون من أبناء المدينة!

صمتنا طويلاً، ثم قطعت هيلينا الصمت قائلة بوجهها الشاحب العصبي:

- عزيزتي..

- نعم هيلينا؟

- سلاطة التونة بالجزر لذيذة جداً!

قالتها ثم صمتنا طويلاً من جديد.. سقطت هي في فخ مخاوفها الوجودية، وسقطت أنا في دوامة صور بطلتها أنا وقد متّ متجمدة على أحد أرصفة "نابروجادا" كما يليق بمغتربة عربية وحيدة!

***

بتُّ ليلتي وبي قدر من الشفقة على نفسي.. فيم كان تركي غرفتي الدافئة في القاهرة، حيث الدباديب القرمزية واللبنية تتاخم فراشي وحيث تزين قطع الأرابيسك الجدران؟!

أنا حتى لا أصلح لأن أكون شحاذة غجرية هنا.. الشحاذات الغجريات هنا يُجِدْن عزف القيثارات وتنظيف الأرصفة أمام المحلات ويعرفن كيف يدخلن في معارك شرسة مع أصحاب دكاكين الخضر والبقالة العرب؛ كي يظفرن منهم بخبز وسجائر بأسعار أقل.. وإذا ما استحكم الأمر، فبعضهن يستطعن سرقة عناقيد العنب المتدلية من أسبتة الفاكهة المثبتة على مداخل محلات البقالة على نواصي نابروجادا.. أما أنا فلا أملك أياً من هذه المهارات!

أنا ابنة رجل من ذوي الياقات البيضاء في بلادي!

لماذا لم أتزوّج العريس "الرقميّ" الذي تقدم لي العام الماضي في القاهرة؟!

"شقتي بمائة ألف، ومساحتها ٨٠٠ متر، وهاتفي المحمول نوكيا ٦٠٠٠، وحوّلت منه لأخي رصيداً بـ ٢٠ جنيهاً!"

هكذا كان يتحدّث.. وأنا لست فتاة الأرقام.. ولا أحب الأرقام، فكيف

كنت أتزوجه؟! هل كان يوفّر عليّ بزواجه تجربة الموت متجمدة؟

فكرت أن أستدفئ قليلاً فأشعلت عوداً من البخور ووضعته على رف فوق فراشي.. سرعان ما انتشرت رائحة البخور في الغرفة، فأعادتني رائحة البخور إلى القاهرة على بساط سحري.. تذكرت تحديداً من أين أتيت بأعواد البخور تلك، إذ كنت خارجة من بوابة محطة مترو "السيدة زينب" حين تعثرت في كتلة ما على الأرض كادت أن توقعني، اتّكأت لحظتها على ظهر رجل كان يسبقني بخطوتين أتسنّد عليه، وكان ملتحياً حادّ الملامح، فنظر لي نظرة صارمة معناها: "مش تفتّحوا يا بهايم؟!"

شعرت بالحرج ونظرت خلفي أتفحّص بغضب الكتلة التي تعثّرت بها، فوجدتها امرأة تلبس خماراً رمادياً كبيراً مفترشة الأرض بقليل من المناديل الورقية وعلب البخور الرديء، بينما يتجول صغيرها عاري المؤخرة حولها، ماسحاً مخاط أنفه في خمارها الرمادي.

نظرت لي المرأة البائسة نظرة متوسلة لم أجد لها ردّاً، فانحنيت ألتقط بعض البخور من على الفرشة المترية، ونقدتها الجنيهات الخمسة التي كانت في جيبي.

كنت أنوي أن أعطيها لـ"انتصار"، الفتاة صبوحة الوجه التي تنظف المراحيض في ماسبيرو بابتسامة عريضة.. لا بأس يا "انتصار" يبقى لك عليّ خمسة جنيهات.

بينما تتسلل رائحة البخور إلى داخل رئتي حاملة شيئاً من ذكرياتي

القاهرية، شعرت بامتنان لهذه الكتلة البشرية التي كدت أتعثر فيها، فلولاها ما كنت أفكّر أن أصحب معي بخوراً رديئاً إلى كوبنهاجن!

انتشيت برائحة البخور، وقررت أن أزيد نفسي تدليلاً، قبل أن يأتي يوم لا بخور فيه ولا تدليل، فقمت أعدّ لنفسي قدحاً من القهوة التركي المركزة، بينما أدندن اللحن الفخم لأغنية "هذه.. ليلتي"

مع رائحة القهوة وانتني ذكرى فتى مغربي ضئيل الجسم خبيث النظرات اسمه "الأحسن". كنت قد تعرفت عليه في أحد فصول الدراسة الحرة؛ إذ كان يقول إن القهوة تستأهل أن تُعامل كامرأة.. "بغزلية واهتمام" كان يقولها بالفرنسية ثم يترجمها بالفصحى، محركاً حاجبيه لأعلى وأسفل على طريقة توفيق الدقن في الأفلام القديمة!

"يا آه يا آه!"

كان مثيراً للاشمئزاز بحاجبيه اللعوبين هذين، وإن كان قد أصاب فيما يتعلق بجدارة القهوة بالغزلية والاهتمام.

بعدي أدندن، مع أول رشفة قهوة من القدح مفحفح الرائحة: "سوف تلهو بنا الحياة.. سوف تلهو بنا الحياة"

في طريقي من المطبخ إلى غرفتي اختلطت أغنية "أم كلثوم" في ذهني بذكريات القاهرة ورائحة البن و... رائحة أخرى لا أدري مصدرها! رائحة قماش مشتعل؟ قطن مشتعل؟ ورق مشتعل؟ سرير مشتعل! مشتعل؟ نعم! إنه فراشي.. فراش هيلينا يشتعل!

***

كان الفراش في غرفتي مشتعلاً كقطعة حطب أمسك بها اللهب.. كانت النار تأكل كل بوصة في الفراش الخشبي وتلتهم الستائر الحريرية المزركشة من فوقه ورواياتي ودواوين الشعر التي حملتها على قلبي عابرة بها البحار والسماوات والأرضين من القاهرة إلى كوبنهاجن.. عود البخور الخسيس استغلّ غيابي لإعداد القهوة وسقط على فراشي وناره المستصغرة تلتهم الآن كل الأشياء في طريقها بشراسة ألجمت عقلي وجسدي، فما استطعت إلى الحركة سبيلاً.. فقط صرخت!

ركضت إلى الغرفة المجاورة لغرفتي بالسكن، وكان يسكنها فتى يوناني كلاسيكي المظهر له نظارة طبية سميكة وطلة طالب علم مجتهد.. قرعت الباب ففتح مبتسماً بشك يتساءل ول ابد في نفسه: "ما الذي أتى بهذه المصيبة الشرق أوسطية إلى غرفتي في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟"، فقطعت حبل أسئلته صارخة في وجهه بالعربية: "النار مسكت في السرير.. أوضتي ولعت.. الشقة كلها حتتحرق في دقايق"

لم يفهمني ولم أكن في حال يسمح بالترجمة، فجذبته من سترته إلى غرفتي.. طاوعني الفتى بخطوات حذرة، ليرى ما هنالك، وما أن رأى النار حتى هرع في فزع يملأ آنية المنزل ماء، ويحاول إطفاء اللهب وأنا أقف إلى جوار الفراش مستمرة في الصراخ!

بعد ثلث ساعة من معاركة النار نجح منقذي اليوناني ذو النظارة الطبية السميكة في السيطرة على الحريق، ثم تركني أقف وسط مزيج

من الرماد والنار بعد أن ضمّني إلى صدره بقوة متضامناً قائلاً شيئاً ما باليونانية من قبيل: "معلش حصل خير!"

كانت الغرفة قد استحالت مزيجاً مخيفاً من الماء والرماد وبقايا خشب ونسيج محترقين، والكثير من الروايات التي أكلت النيران أطرافها وأتت المياه على بقيتها الباقية!

تذكرت وأنا أتأمل بقايا الروايات ودواوين الشعر ما قرأته عن أن سكان "قونية" في بلاد فارس القديمة كانوا يعتقدون أنه يوجد جني صغير يدعى "كيبيك" يستمتع بإتلاف الكتب. ولمنعه من عمل ذلك كانوا يدوّنون عبارة تحذيرية في كل كتاب: "توقف يا كيبيك. ابتعد عن هذا الكتاب!"

يا ربي لماذا لم أدوّن عبارة تحذيرية للجني الصغير المتلاف على رواياتي قبل أن تأتي عليها النيران؟!

أغلق منقذي اليوناني باب الغرفة فشعرت أني وحدي في العالم بأسره! ماذا عساي أفعل الآن؟! كيف أفسر هذا المشهد الفوضوي لهيلينا؟ ومن أين أعوّضها عن هذه الخسائر المادية؟ والأفدح، أين أبيت الليلة في مدينة درجة حرارتها تحت الصفر بسبع درجات؟!

توجّهت إلى سبورة أطفال تحتفظ بها هيلينا في غرفتها، وتناولت أحد الأقلام الملونة الخاصة بالسبورة، ورسمت شمساً مبتسمة كالتي كنا نرسمها في المدرسة وكتبت تحتها بالإنجليزية:

"أنا كنت هنا.. في يوم بارد كنت هنا.. أنتظر يوماً مشمساً كنت".

بعدها هاتفت أمي بصوت مبتهج وقلت لها إن كل شيء بخير. ووعدتها أني بمجرد أن ترتفع درجة الحرارة قليلاً في كوبنهاجن سأستضيفها في شقتي الأنيقة عدة أيام؛ لتتبضع وتقضي وقتاً لطيفاً في شرفة الشقة!

تناولت قرصاً مهدئاً ورحت في نوم ثقيل؛ علّي حين أصحو في الصباح، بالكاد سأتذكر من أنا وأين أنا حتى يزول أثر القرص المهدئ.. نمت ليلتها على ما تبقى من مرتبة السرير نصف محترقة نصف مبتلة، والبرد يدق كل عظمة في جسدي.. نمت بردانة جزعة أستجدي القرص المهدئ كي يزيد من فعاليته.. نمت وعيون التماثيل الإفريقية السوداء تخترق لحمي!

***

لا أفقر من امرأة لا ذكريات لها.

فأثرى النساء ليست التي تنام متوسّدة ممتلكاتها.

بل من تتوسّد ذكرياتها.

أحلام مستغانمي- الأسود يليق بك

بيلاروب

بحثت كثيراً في إعلانات الإيجار في الصحف؛ علّي أجد ما يتناسب مع ضآلة راتبي وكثرة حقائبي وكراكيبي.. أجريت عشرات الاتصالات الهاتفية وكان الرد دوماً: "عفواً.. اتصلت متأخرة.. تم تأجير السكن بالفعل"

في النهاية حصلت أخيراً على موعد مع صاحب عقار في "بيلاروب"، وهو حي متطرف تحفّه أشجار غابية عملاقة لا أعرف اسمها تحديداً، لكني أعرف يقيناً أنها تلقي بظلال تخنق الروح!

صحبت معي خريطة كوبنهاجن؛ كي لا أوقف المارة وأسألهم عن الحي والبناية كما أفعل عادة.. قلت في نفسي إني سأعتمد على نفسي مهما كان الوقت المسفوح والجهد المبذول.. سأتعلم كيف أجد الأماكن المرسومة على الخريطة الملونة المعقدة دون مساعدة من أحد..

ثلاث ساعات! سفح قراري الشجاع هذا ثلاث ساعات من عمري في برد ثلجي يشي بأن درجة الحرارة لم تزد على عشر درجات مئوية تحت الصفر..

لم يعصمني الجوربان الصوفيان الثقيلان، ولا البالطو المصنوع من فراء حيوان مسكين قتلوه لأجلي، ولا القفازان الكئيفان من التجمد..

في طريقي إلى بيلاروب لمحت فتاة تشبه الغراب تتدلل على فتى وسيم كالبدر وهو يستجيب مُدلهاً كالمسحور بقبلات ساخنة، فقلت في نفسي إن الفتاة الغرابية ألقت ولا شك تعويذة ما على المسكين!

تردّد في عمقي صوت يقول: "كبدي ع الجدع.. البت ساحراله"، متداخلاً معه صوت آخر يقول: "بنت المحظوظة! يوماً ما سيعشقني أحدهم دون تعويذات ولا ساحرات ولا عملات!"

بعد الساعات الثلاث، وبعد جهد جهيد وبرد شديد وصلت أخيراً إلى محطة مترو في نقطة وسيطة بين سكني الحالي والحي المنشود بيلاروب! ركبت مترو العاصمة (الذي يقال إنه يسير بلا سائق، غير أني لم أفتش كابينة السائق لأستوثق من هذا الأمر بنفسي!) متوجهة إلى بيلاروب؛ لأتعرف على صاحب العقار الذي سيكون كذلك رفيق السكن، والذي عرفت من اسمه أنه عربي.

- أهلا عزيزتي.

- أهلاً "شريف".. مصري؟

- أيوه.. اتفضلي.

شيء ما غير مريح في المكان.. ربما هو "شريف" نفسه غير المريح!

برغم إحساس عدم الارتياح بداخلي، جلست أحتسي الشاي وأثرثر قليلاً مع "شريف".. كنت منهكة مرتعشة الأطراف مزرية المظهر أحتاج

إلى شيء من الإيناس والشاي، فشاركت شريف احتساء الشاي بلهفة، محاولة ألا ألتفت لإحساسي العام بعدم الارتياح للمكان وصاحبه.

شقة "شريف" نصف مظلمة نصف مضيئة، إضاءتها أميل إلى الحمرة وبها مزيج غير متجانس من المزاجين العربي والأوروبي.. في ركن ما تقع عيناك على طاولة عليها "كوفي ماشين" غربية الطابع، وإلى جوارها طبق حلوى القرفة الدنماركية التقليدية وزجاجة نبيذ وتمثال يحمل علم الدنمارك.. في الركن المقابل تأخذ عينك سجادة صلاة ومسبحة ومصحف مفتوح على حامله.

وجد "شريف" في شخصي ضالّة ما على ما يبدو؛ إذ تلبس وجهه فجأة شيئاً من الأسى، وبدأ يسرد أوجاعه في الغربة وكيف هجرته زوجته الدنماركية الفاتنة التي تزوجها منذ عقد من الزمان بعد ضربة عشق متوحشة في شرم الشيخ..

"أخذت ابنتي وهجرتني.. والقانون الدنماركي حليف النساء.. لا ناصر لي هنا ولا عزاء.. ذكرياتي ووجه طفلتي الذي أراه في المناسبات وغريزة البقاء برغم الوحدة والبرد هي كل ما يبقيني أتنفّس"

كان "شريف" أربعينياً تعيساً وحيداً وقح النظرات.. وكنت قد حزمت أمري بداخلي على ألا أشارك هذا الرجل سكنه، حتى وإن كان البديل أن أبيت إلى جوار فتاة الجيبسي إياها على الرصيف!

شكرته على حسن الضيافة، واستأذنت في الانصراف.. بينما نزل على الدرج سألته وقد دسست يدي في المعطف الفرو الثقيل: ماذا تعمل هنا يا "شريف"؟

- بودي جارد في بار ستريتيز!

- ستريتيز؟

- أنت لا تعلمين قسوة الحياة هنا لرجل نصف متعلم يا عزيزتي.

قالها كما لو كان يبرر لي أمراً هو غير مضطر أصلاً لتبريره.. لم يكن على الرجل أن يكلف نفسه هذا العناء على أي حال.. فمن أنا لأحاكمه؟

- سلام.

- مع السلامة.

***

"الفايكنج": لفظة تطلق على سكان المناطق الإسكندنافية عموماً، وعلى الرغم من أن سمعة الفايكينج التاريخية سيّئة وطبيعتهم معروفة بوثنيتها ووحشيتها فإن هذه الشعوب تحوّلت خلال قرن أو اثنين من الزمان إلى المسيحية، واستقرّوا في الأراضي التي هاجموها سابقاً. كان أهم القصص الميثولوجية لدى الفايكنج هي المتعلقة بوحش بحر الشمال، وقد صوّرته اللوحات التراثية بينما يهاجم سفن الفايكنج ليلاً في بحر الشمال، لذا فقد نحتوا وجهه على مقدمة سفنهم، معتقدين بأنهم هكذا يتقون شروره.

فرانسواز

عرضت عليَّ فرانسواز، الفرنسية المتعجرفة، أن تستضيفني في بيتها الوثير بالقطاع المترف من نابروجادا، ريثما أجد لنفسي سكناً مناسباً، لكن كبريائي منعني!

فرانسواز، زميلة العمل النشيطة التي لا تخفى عليها خافية في المنظمة، لها أنف مرتفع يتحدر من جبهتها متعالياً قاسياً، ووجه أبيض يحتقن ويحمر لانفعالاتها الكثيرة.. لم أكن أرى فرانسواز إلا كفتاة فرنسية ذات دماء زرقاء علمت لتوها أن "الرعاع" سيسوقونها هي وأسرتها النبيلة إلى المقصلة فصبّت لعنتها على الجميع!

فرانسواز تعامل أبناء المنطقة العربية بشفقة مصطنعة أكثر استفزازاً مما لو عاملتهم بعجرفة، وهذا ما كان يزيد من كراهيتي لها!

"سأظل أدافع عن النشطاء السياسيين في سوريا حتى آخر قطرة دماء في عروقي.. يوماً ما سأدوس على رقبة بشار الأسد بحذائي الأسود اللامع ذي الرقبة العالية! يوماً ما سيتحرر العرب كلهم ويصبحون شعوباً لها كرامة تماماً مثلما فعل الفرنسيون قبل قرون!"

بشفقتها القاسية المتعالية ألحّت فرانسواز عليّ مرارا: كي أبيت في شقتها الوثيرة:

"سويتي، تعالي إلى مسكني.. لا تخجلي مني.. شقتي الدافئة فسيحة تتسع لنا سوياً.. لماذا ترفضين ضيافتي؟"

كنت في كل مرة ألتقط نبرة الشفقة المتعالية تلك كنت أزداد إصراراً على أن أرفض عرضها بسخافة وثقل ظلّ متعمدين:

"لا أحتاج مساعدة.. فلديّ مرتبتي المميزة نصف المحترقة نصف المشربة بالمياه المثلجة، ولديّ تماثيل إفريقية تحدّق فيّ طوال الليل، ولديّ كابوس أو اثنان معلقان فوق رأسي مباشرة حيث أنام! شكرا"

كم كرهتها حين كانت تناديني "سويتي"

وكأن حقدي عليها كان يجد جذوره في حقد المناضلين الوطنيين على المستعمر الأجنبي! رغماً عني، جعل منها عقلي أيقونة للاستعمار الفرنسي لشمال إفريقيا.. وبالغ عقلي في تسليتي وإمتاعي فوجدتني أتقمص مع الوقت شخص "جميلة بو حريد"، وأفسر كل تصرف منها على أنه تصرف استعماري خسيس، وكل فعل مضاد مني على أنه فعل مقاومة نبيل!

***

عندما كنا نقوم بعمليات التمشيط ومداهمة القرى والجبال للبحث عن المجاهدين، كان كل مرة تحز في نفسي وتشعرني بالخجل ردة فعل النساء، حيث كن يهرولن ويهربن نحو اسطبلات الحيوانات عند رؤيتنا

ويقمن بتلطيخ أجسادهن بالروث وفضلات الحيوانات؛ لكي نشمئزّ منهن عند محاولة اغتصابهن، ولا نقربهن بسبب الرائحة الكريهة التي تنبعث منهن بفعل الروث.

من مذكرات جندي فرنسي أثناء الثورة الجزائرية

هيلجا

قرأت إعلاناً عن سكن ما على أحد المواقع الإلكترونية الدنماركية ترجمته للإنجليزية لأجلي "عايشة" وهي زميلة عمل لبنانية شيعية متزوجة من إيطالي كاثوليكي، ويعيشان في السويد ويعملان في الدنمارك!

قالت "عايشة" إن الإعلان يبدو ملائماً عموماً، وإن كان عليّ أن أشارك امرأة مُسنّة سكنها.

"هيلجا".. امرأة في خريف العمر تعيش وحيدة في منزل من طابقين في مقاطعة ريفية متاخمة لكوبنهاجن، وترحّب بشركاء السكن من الطلبة المغتربين.

دخلت إلى بيتها برفقة اللبنانية؛ كي تقوم بالترجمة بيني وبين "هيلجا"

منذ اللحظة الأولى التي عبرت فيها بوابة منزل "هيلجا" العتيق ارتعش جسدي بكامله، وداخلني شعور يرقى إلى حد اليقين بأن هذا المنزل مرتع للجن والكائنات المفارقة غير المرئية!

بيت قديم، وحيد لا تجاوره أبنية ولا بيوت، تحفُّه أشجار عمرها مئات السنين، متشابكة الأغصان كثيفة.

"هيلجا" نفسها بدت لي نصف إنسية نصف جِنّية!

امرأة في منتصف خمسيناتها تسير متكئة على عصا خشبية مزينة بالأشرطة الملونة، لها شعر فضي هائش كالعشب الجاف، وبشرة أكثر بياضاً من البياض نفسه، وعينان رماديتان واسعتان تكحلهما بكحل سواده أسود من السواد ذاته، تحدقان بهما طويلاً في وجهك قبل أن تبتسم لك ابتسامة شرسة تكشف بها عن أسنان مصفوفة بعناية غير آدمية وذات حوافّ مدببة!

صحبتنا "هيلجا" إلى الطابق الثاني، داعية كلتينا إلى بعض الشاي.. كان الطابق الثاني مملوءاً بالقطط! عدد كبير لم أستطع حصره من القطط.. قطط بيضاء وأخرى سوداء وأخرى مشمشي.. قطط قطط قطط.. وكأن مظهرها الناري لم يكن يكفي لإثارة رهبتي!

مرحبا يا حلوات.. كم أحب أن تشاركني شابات مملوءات بالحيوية سكني.. خاصة السمراوات منهن.. ما أقسى حياة امرأة وحيدة في عمري.

كنت بينما تتحدث هيلجا كاشفة عن أسنانها اللؤلؤية غير الآدمية أتمتم أنا بآية الكرسي..

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾

أنا "عايشة" من السويد.. وهذه زميلتي، من مصر.. هي من ستشاركك السكن.. لكنها لا تتحدث الدنماركية.

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾

أووووه.. خسارة.. يمكننا أن نحاول التواصل بالإنجليزية.. فلم يعد في العمر ما يكفي لتعلّم العربية..

قالتها "هيلجا" ثم ضحكت ضحكة عصبية مفتعلة عالية، أخافتني كما كان يخيفني في مراهقتي مرأى "دراكيولا" في أفلام الرعب.

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾

أمسكتُ بتلابيب "عايشة" أشدّها في إلحاح طفولي:

- يلا يا عايشة والنبي خلينا نمشي من هنا..

- شو بكي هلأ؟ ليكي استني شوي.. المرة عم تتعرف عليكي.

- يلا يا عايشة.

تدخّلت "هيلجا" في الحوار بعينين ناريتين:

- هل من شيء يسوء صديقتنا المصرية؟

- لا، هيلجا.. هي فقط لا تحب القطط.

- أتفهّم هذا.. لكن الطبيعة الأمّ لم تمنّ عليّ بأبناء، فاتخذت من قطط الشوارع المسكينة أبناء لي.

ظللت ممسكة بملابس "عايشة" ألح عليها كي نغادر على الفور، فاستأذنت لنا بدافع من إلحاحي غير فاهمة ما هنالك، وودّعتنا المرأة وقططها بعيون مخيفة كثيرة لا أدري عددها!

أنا لا أحتاج لأن أرى عفريتاً من الجن كي أتأكد أن هذا كان بيتاً ترتع فيه كائنات شريرة غير مرئية، وأن "هيلجا" على الأرجح قادرة على التواصل مع هذه الكائنات.. تكفيني حاستي السادسة التي تعلمت مع الوقت أن أثق بها وأتبعها.. دون أن أكون مطالبة بتفسير لأحد.

ألطاف

في اليوم التالي صحوت عازمة على اصطياد مكان آمن أستقر فيه وكفى.. أي مكان في كوبنهاجن.

نبشت كالمهووسة في كل الصحف الإلكترونية المتاحة حتى عثرت على إعلان حملني مجدداً إلى "الجيتو العربي".. نابروجادا.

بيت كبير من ثلاثة طوابق.. فخيم هو المكان، محاط بحديقة صغيرة مهندمة تشي بأنها محل اهتمام..

ألطاف..

مالك البيت، رجل قارب الستين هو، طبيب جراح من أصل باكستاني متزوج من إيرانية شمطاء ضخمة البنيان، وله منها ابنتان تبدوان كأختي سندريلا الشريرتين من زوجة أبيها الشريرة!

ما لي أنا وما لهن؟ إذا كانت أجرة السكنى هنا مناسبة سأنتقل حتى لو كانت شريكتي في السكن أمنا الغولة نفسها!

- "لك ابتسامة ساحرة".

قالتها لي السيدة الإيرانية مرحّبة بابتسامة كشفت عن سنتين أماميتين بارزتين كأسنان الأرنب جعلتا هيئتها العامة مضحكة، ثم أضافت:

لست أحب حديث السياسة كثيراً، لكن يحضرني أن مصر استقبلت شاه رضا بهلوي بعد الثورة الخمينية في وقت لم يكن الرجل ليجد فيه ملاذاً آخر، وقد هدّه المرض العضال ونهش جسده النحيل.. سبحان المعز المذل.. أنتم أهل ضيافة أيها المصريون.. لذا يسرني أن تشاركني السكنى مصرية.

شعرت بامتنان عظيم في أعمق أعماقي للرئيس الراحل "السادات" رحمة الله عليه- وحيّيت بحماسة موقفه من الشاه آنذاك، والذي أجني أنا الآن بعد عقود من الزمان ثماره في آخر بلاد الله!

كدت أن أزايد وأقدح في ثورة الخميني، غير أني أدركت أن المرأة ترتدي "الشادور" الإيراني، الزي الرسمي في إيران في أعقاب الثورة الإسلامية، فقلت في نفسي: لا داعي للعك! المهم أن نظفر بسكن الآن!

قالت ذات السنتين الأرنبيتين إنها ستغادر هي وابنتاها الشعثاوان إلى إيران خلال يومين؛ لحضور زفاف قريبة لهن هناك، بينما سيبقى الطبيب الخمسيني يشاطرني السكن لحين عودتهن.

سيستقبلك زوجي دكتور "ألطاف" بعد أن نغادر نحن.. سيكون المكان حينها معداً لاستقبالك.. حافظي على البيت، وأوصيك ألا تدخني داخل البيت؛ لأن "ألطاف" مصاب بضيق في التنفس. وطلبي الأخير أن تتصبري على طبعه.. هو صارم بعض الشيء، لكنه عجوز طيب..

كانت تضغط لفظة "دكتور" في كل مرة تشير إلى زوجها بطريقة ذكّرتني بالأسر الريفية في مصر حين يرسلون أحد أبنائهم إلى القاهرة ليدرس

الطب، فيباهون الجيران والأقارب بإنجازهم الاجتماعي في كل لحظة: "الدكتور جاء.. الدكتور سافر.. الدكتور مش موجود ولازم نستناه لما يرجع عشان ناخد رأيه.. الدكتور مش فاضيلكو!"

أقلقني ما قالته عن صرامة الرجل، لكني وعدتها بما أرادت، وغادرت بنفسية المنتصرة!

يومان إذن وأكون من ساكني البيوت الفخيمة ذوات الحدائق!

بدأت ألملم حقائبي الكبيرة.. ملابس ثقيلة، ملابس خفيفة، أقراط كبيرة متدلية، خواتم فضية منقوش عليها أسماء الله الحسنى كنت ابتعتها من خان الخليلي، كريمات معطرة للبشرة، مساحيق وجه رخيصة، قلم كحل أوشك على الانتهاء، كتب نصف محروقة، أدوية مضادة للبرد وأخرى مضادة للاكتئاب.. ما أكثر أشيائي التافهة! ليتني أستطيع التخفّف منها جميعاً..

أنهكني السفر الطويل والحقائب الكبيرة والمتعلقات التافهة التي كانت تصنع لي عالماً حميماً في الأماكن الغريبة عليّ.. كأنما كانت تعوّضني متعلقاتي عن افتقاد رائحة أمي.. عن افتقاد صوتها الذي ورثت منه ذكوريته!

فكرت كيف يمكنني أن أحتفل وحدي بليلتي الأخيرة في غرفتي نصف المحترقة.. تسللت إلى المطبخ وفتحت دولاب الخزين، حيث يخبئ "منقذي الإغريقي" مطفئ الحريق خزينه المترف من الطعام والشراب،

وسرقت زجاجة النبيذ الفاخرة من ها هناك، وعدت بها إلى غرفتي مع كأس ممشوقة وقليل من الفستق..

هل كان خمر العشق ما تغزّل فيه الصوفية القدامى في أشعارهم.. أم كانوا يعاقرون الشراب ويتخفون وراء حديث العشق الإلهي: خوفاً من أن يقسو عليهم الأخبار والتاريخ وولاة الأمور؟!

ما عساه يحصل إن أنا رشفت قليلاً من النبيذ، هاه؟ ما عساه يحصل يعني؟ هل تهدّ الدنيا فلا تعود تنبني؟!

صببت كأس نبيذ على مهل وقلت في نفسي: لا بأس بقليله.. لست أظن أن الله سيلتفت إلى امرأة صغيرة تحتسي كأس نبيذ وحيدة في هذه المدينة المتجمدة.. وإن التفت، فعساه يغفر.. أو ربما يتشاغل عن شأني بالحروب والمجاعات ودعاء المظلومين وضحايا الطواغيت في بلادي، فكلها شئون أكثر إلحاحاً من شأن كأس النبيذ المسروق هذا!

قلتها وهممت بالكأس حين رنّ هاتفي المحمول.. أمي تتصل.. رميت الكأس على الفور من النافذة، وأغلقتها بحركة سريعة خشية أن تتسرب رائحة النبيذ لأمي عبر الهاتف، ثم لمست شعري المبعثر، ورددت عليها بهدوء مفتعل:

- أيوه يا ماما.. لا لا.. كنت نايمة شوية يا حبيبتي!

الله يغفر.. أما الأمهات، فيعرفن كيف يستخدمن سلطتهن المعنوية بقسوة!

انفردت الحية بحواء وبأسلوب ماكر دفعتها لتناول ثمر الشجرة التي نهاهم الرب من أكلها، واستعمل الشيطان في إغواء "حواء" الخطيئة ذاتها التي كانت سبباً في سقوطه وهي الكبرياء، حيث قال لها إنها إن أكلت تلك الثمرة هي وآدم فسيصيران كالله عارفين الخير والشر.

***

بدا لي "ألطاف" غير مرحّب بي، يودّ لو يمنعني من دخول بيته.. ساقني إلى الداخل كي أتعرّف على المكان دون ابتسامة ولا كلمة ترحيب.. في الطابق الثاني استوقفني حذاء غرفة مكتبه، وقال بصرامة:

"ممنوع منعاً باتاً دخول غرفة مكتبي.. هنا مكتبتي وأبحاثي العلمية، ولن أتهاون إذا فقدت قصاصة ورق واحدة من أوراقي.. وإذا حدث أن وجدت أحد أبحاثي منشوراً في أي مجلة علمية كانت باسم غير اسمي ستكونين أنت المشتبه به الأول، وسأسلّمك للشرطة.. ولست أحسب مهاجرة شرق أوسطية مثلك ستحب كثيراً أن تتورّط مع الشرطة الدنماركية.. صدقيني لن تكون تجربة ممتعة"

نظرت له مذهولة فزاد بحدة:

"وأريحي نفسك.. نحن لا نحتفظ بالأشياء الثمينة هنا.. بل نرسلها لخزانة خاصة في البنك".

أنا؟ أنا؟ أنا يقال لي هذا الكلام؟ أنا لصّ محتمل؟!!

ألجمني الذهول والرثاء لحالي، فلم أردّ على كلام الرجل.. فقط أطرقت برأسي صامتة.

صعدت معه إلى الطابق الثالث المسمى attic فأدخلني غرفة تبدو كمخزن للوسائد والفرش غير المستخدم، بها فراش صغير.

بنبرة صوت غير ودودة قال:

"غرفتك.. يمكنك أن تستخدمي المرحاض المجاور.. وستشاركينني غرفة الطعام والمطبخ في الطابق الأرضي"

قالها وتركني وراءه في الغرفة دون ابتسامة ولا كلمة ترحيب ولا استئذان.. تركني أبكي وأنهنه بحرقة كطفلة أخذوها من حضن أمها، ثم انتزعوا منها دميتها الأجمل، فحطموها أمام عينيها الباكيتين.

"أنا لم أكن لأسرق ممتلكاتك أيها الباكستاني الفظ غليظ القلب أنت.. ولم أكن لأنشر أبحاثك العلمية باسمي.. أنا فتاة صالحة.. أنا.. أنا.. ألا تعرف من أنا؟ أنا لا أسرق.. اسأل عني أمي.. ستقول لك إني فتاة طيبة!!!"

***

كنت أتحاشى التواجد مع "ألطاف" في المكان ذاته ما استطعت.. كانت تمر أيام أنجح في ألا أراه مطلقاً.. فقط أسمع صوت قدميه على درج البيت، أو صوت التلفاز في غرفة المكتب (قدس الأقداس المحرم عليّ!) فألزم غرفتي صامتة.

لم أكن أخرج من جحري حتى أسمع صوت إحدى سياراته تغادر مرآب قصره المنيف، فأتقافز في كل مكان، عدا المكتب بالطبع، مبتهجة مغنية بصوت مرتفع!

ظلّ الحال على هذا المنوال لأسابيع، نجحت خلالها في مراوغة الرجل حتى تلك الليلة.. يا رب ماذا كان استثنائياً في تلك الليلة؟!

لم يكن "ألطاف" بالبيت تلك الليلة، فخرجت من جحري أعدّ عشاء قررت، لسبب ما لا أدريه، أن يكون مترفاً!

تأنّقت وأعددت طاولة طعام لطيفة وأنيقة زيّنتها بشمعة وزهرة بيضاء سرقتها مترددة من حديقة "ألطاف"!

"هذه.. ليلتي.."

كنت أدندن أغنيتي جلابة المصائب هذه بينما أنسّق سفرتي الصغيرة. وفي اللحظة التي هممت فيها بوجبتي اصطدمت بعيني "ألطاف" تتأملانني بصرامة!

متى عاد دكتور "جاثوم" من عمله يا ربي؟! ولماذا الآن؟!

تسمّرت في مكاني، بينما الرجل واقف على أعتاب غرفة الطعام يتأملني ويتأمل الفوضى في المكان بعينين متسعتين ثابتتين ناريتين.. أحسست لوهلة أن زينة وجهي كلها ذابت وسقطت في طبق الشوربة أمام صرامة نظراته!

ابتلعت ريقي بصعوبة وقلت بصوت مبحوح:

- لماذا لا تتناول العشاء معي يا دكتور؟

صمتنا طويلاً قبل أن يجذب "ألطاف" كرسيه ويجلس إلى طاولتي في هدوء، ثم أمام عيني الدهشتين بدأ يتناول طعامه!

تناولنا العشاء سوياً ليلتها صامتين تماماً.. كان وجهه صارماً كما رأيته أول مرة، لكن كانت له ملامح دقيقة محببة.. بنهاية العشاء الصامت كان شيء ما في وجهه قد لان لي قليلاً.

"أنت لا تحتاجين مساحيق وجه كي تبدي جميلة.. لك وجه ساحر كوجه ملكة تنتمي لحضارة شرقية قديمة لم يتبقّ منها إلا الغموض"!

قالها بصرامة دون أن ينظر في وجهي، ثم غادر إلى غرفته، فوجدتني أدندن من جديد: "سوف تلهو بنا الحياة"

***

منذ تلك الليلة لم يعد "ألطاف" يغادر البيت! طلب إجازة من عمله وأصبح يقضي الوقت في البيت شاردا متأملا صامتاً كئيب المنظر زائغ العينين مُشتّت الأفكار.. يأتي إلى غرفتي ليلاً دون استئذان بوجه مثقل ليحكي حكايات مبهمة المغزى، ثم يمضي دون أن يكترث لتعقيبي!

وفي الصباحات يستيقظ مبكراً، يحضر لي الإفطار والقهوة، وينتظر استيقاظي وقتما يحلو لكسلي! وما أن يراني حتى يهشّ لي ويبدأ في استدعاء بعض الألفاظ العربية التي تعلمها وقت كان يعمل في إحدى مستشفيات المملكة العربية السعودية.

"صباح نوور.. صباح خيرات.. جميلة.. أنت جميلة".

وحين أغيب عن ناظريه قليلاً كان يهاتفني ملهوفاً مستفسراً منادياً إياي بـ"مليكتي"

كان أقرب شيء إلى "حاوي" نصب سيركاً من العدم في الأرض الفضاء في وجداني!

كان يحكي أشياء كثيرة عن الشيعة في باكستان، وهو منهم، وعن انسحاق العمالة الآسيوية في السعودية، وقد عمل هناك لسنوات، وعن أحوال المسلمين في الدنمارك الذين يمثلهم في العديد من المحافل الدولية.. يبدو أن الرجل عاش عمره كله يرثي لحاله.. عاش عمره حاملاً شعور الأقلية المنبوذة في وطنه كما في بلاد المهجر.

"ألطاف" مسكين كمثلي وأكثر!

"ألطاف" أجدر مني بالشفقة!

"ألطاف" ليس صارماً في داخله كما يبدو!

كان حديثه ممتعاً شائقاً هوّن عليّ الشيء الكثير من اغترابي ووحدتي.. كان من الممكن أن تكون علاقتي بـ"ألطاف" حلوة كحلم ليلة صيف، لولا تفصيلة صغيرة واحدة: "ألطاف" كان يؤمن بتناسخ الأرواح!

"لقد التقيتك من قبل.. في حياة أخرى.. كنت هناك وكنت أنت.. أنا أعرفك منذ أزمان بعيدة.. أنا أحبك منذ قرون.. أعشقك منذ النشأة الأولى.. أنت لي من أولك"

كان يقولها، ويبكي كطفل..

***

والإنسان الأول في الميثولوجيا الفارسية، وهو نصف رجل ونصف امرأة، وصل إلى الأرض بعد اجتيازه سبع سماوات، كان يكتسب مع كل سماء منها منظراً وطبيعة ملائمين لمزاجه"

***

حكى لي "ألطاف" حكايات كثيرة عن نساء توفين في أوائل القرن العشرين ثم عدن مرة أخرى في نهاياته في أجساد أطفال، وأخريات شريرات صُلبن أو حُرِقن في القرون الوسطى، فعدن في أجساد حيوانات أو كائنات أدنى في أيامنا هذي..

حاول أن يُدلّل على صحة نظريته كثيراً وأقسم كثيراً إننا التقينا في حياة سابقة، وحاول جاهداً يائساً منفعلاً كي يجد في عيني تجاوباً.. لكني لم أكن أتجاوب! وحتى لم أكن أجادله.. كنت فقط أنصت نصف خائفة نصف مشفقة.

ابتاع لي "ألطاف" سلسلة من الفضة معلّق فيها حجر لامع رائق أكثر من بديع.. أصر أن يلفّها بيديه حول جيدي، فقبلت هديته صامتة، والتي بكى كثيراً بعد أن ألبسنيها.. حينها ربتَ ظهره في حنان طفلة على أبيها، واختفيت في غرفتي المزرية لساعات.. تمنّيت لو كان باب غرفتي يصلني ببيتنا في القاهرة.. أفتح باب غرفتي المظلمة في كوبنهاجن فأجد نفسي في ردهة منزلنا الواسعة في القاهرة: التلفاز، الصالون الأرابيسك، الوسائد المنقوشة، آية الكرسي معلقة على الجدار المقابل

لباب حديقتنا.. شجرة اللبلاب تتسلق شباك الردهة البانورامي بعناد ومثابرة..

أو ربما ينفتح باب غرفتي لأجد نفسي في غرفة أمي! لم لا؟! سرير أمي الكبير، حيث تتكئ هي مرتكنة الظهر، تقرأ القرآن بصوت عال، تخطئ تجويد لفظة فتعيد قراءتها من جديد.. تنهك فترشف رشفة من فنجان القهوة، ثم تقرر أن تضع المصحف الكبير على الكومودينو وأن تقرأ مقال "سكينة فؤاد" الجديد في "الأهرام"

لطالما هرعت إلى غرفتها بعد أن أكون رأيت كابوساً بشعاً.. لم أكن أخبرها أني أختبئ في غرفتها من كوابيسي المفزعة. وما أكثرها.. كنت فقط أقتحم الغرفة دون استئذان، لأجدها على هذا الوضع، فأطمئنّ أن نواميس الكون تسير كيفما قدّرت لها الذات العلية منذ الأزل فأهدأ وآمن..

لكني في كل مرة كنت أفيق من حلم الغرفة الدنماركية المفتوحة على غرف مصرية هذا على صوت خطوات "ألطاف" يرتقي الدرج الداخلي للمنزل أو يهبطه..

كنت أفيق فأعيد اكتشاف حقيقة مكاني: أنا و"ألطاف" وحدنا في هذا البيت الفسيح بكوبنهاجن، وباب غرفتي لا يفتح على ردهة بيتنا في القاهرة ولا على غرفة أمي.. بل على خطوات "ألطاف" متوترة مترددة.. أسمع صوت خطواته يصل إلى حيث غرفتي.. يقف بالباب دقائق

خمس أو عشر.. يتقدم من الباب.. يتراجع.. يطرق الباب، ثم يغادر قبل أن أستجيب..

اعترف لي ذات ليلة أنه كان يجلس لساعات على الدرج متصيداً ضحكة من ضحكاتي الطفولية الجذلة التي كان يحبها، بينما أحادث صديقة على الهاتف أو أدردش مع أمي عبر "سكايب"!

ثم قال إنه لا يمانع أن أرتاد غرفة مكتبه، وأن أطالع أبحاثه، وأن أسرق الزهور من حديقته، وأن أدخن في بيته، وألا أدفع إيجار الغرفة، على ألا أتركه أبداً!

قال: "هلمي بنا إلى أرض فارس.. أينما تشتهين.. سنغادر كطائرين حُرَين لا يحدنا سور"

ثم أخذ يحدّثني بصوت حالم عن سحر أرض فارس وتاريخها ومساجدها وقصورها وفسيفسائها، وعن الوديان اللامنتهية المكسوة بالعشب المبلل.. ثم عاد فصمت مبتئساً وأضاف: "لكن.. بنتاي.. ماذا عن طفلتيّ؟! لأي عارٍ أسلمهما؟!"

كان مرتبكاً.. مأزوماً.. مصلوباً بين قهر عاطفته وقهر التزاماته.. وكان "أكبر سناً من أن يُعشق.. لكنه قدر الله" كما قال.. كان حاله موجعاً مؤسفاً، لكني ما ملكت له الكثير..

ابتعت زهرة لحديقته أعوّضه بها عن الزهرة التي سرقتها في ليلة العشاء الأولى.. صافحته بحرارة.. وغادرت إلى غير رجعة.

***

وتُعتبر بيري هي أجمل امرأة شريرة في أساطير بلاد فارس القديمة (إيران وما وراءها إلى آسيا الوسطى). ويلاحظ المتتبع لكينونة بيري الأسطورية أنها أصبحت تدريجياً أقل شرًا وأكثر جمالاً في المخيال الجمعي الفارسي وصولاً للحقبة الإسلامية، حيث أصبحت رمزًا للجمال موازياً للحور العين في الجنة".

مارسيل

غادرت قصر "ألطاف" المنيف، وبدأت أبحث خيارات السكنى المتاحة.. لجأت إلى أحد الزملاء المصريين، وكان رجل قانون ضخم البنيان يبدو مهيباً، لكن ما أن يبدأ في التحدث حتى تلمح الطفل الأرعن المرح الكامن وراء الهيكل العظمي الضخم والصمت المؤقت المهيب.. إنه طفل ضخم يكاد، لولا شيء لازم من تصنُّع الوقار، أن يجذب أذيال القطط على أرصفة كوبنهاجن!

تحدثت إليه راجية أن يستضيفني في شقته عدة أيام ريثما أجد بديلاً مناسباً، فقال إنه لا مانع لديه على الإطلاق، غير أن زميلته في السكن ذات ميول جنسية مثلية، وهو لا يأمنها عليّ!

- وانتي بطة حلوة كدة ويتخاف عليكي!

- إحم.. شكراً.. حاتصرف أنا.. ماتحملش همي!

كوبنهاجن مدينة جاذبة للمثليين والمثليات جنسياً.. فالمدينة العتيقة لها هامش من الفردية والحرية الشخصية يسمح بأن يمارس الفرد حياة جنسية خارجة عن المألوف دون كثير تطفّل.. كثيراً ما كنت أرى العشاق من المثليين جنسياً يتسكعون متشابكي الأيدي في وجد حول

بحيرات المدينة دون أن تخترقهم نظرات الفضول. وقد كنت عادة أتسكّع ساعة العصر في منطقة البحيرات، ومعي كيس مملوء بالخبز أطعم منه البط الصغير الملون الذي كان يسبح روحاً وغدواً بطيئاً على سطح البحيرات بلا انقطاع ولا ملل.

لم يكن أمامي إلا حل من اثنين، إما أن أبحث في المبيتات الجامعية الفقيرة على أطراف نابروجادا، أو أن ألجأ لفرانسواز.. وكنت أفضّل الموت سحلاً في مظاهرة في القاهرة على أن أمنح هذا الانتصار لفرانسواز!

بدأت رحلة البحث في مبيتات الجامعات الطويلة والمضنية إلى أن اصطدت غرفة صغيرة في مبيت قديم لا بأس بحالته العامة.. سريران صغيران ومكتب ودولاب وبطانيتان.. لا توجد مخدات؟! لا بأس! حقيبتي الطيبة يمكنها أن تؤدي الغرض!

ماذا عن السرير الزائد يا ترى؟!

"عفواً، آنستي.. سوف تضطرين لمشاركة غرفتك مع الآنسة "أوراش" سوف تفد إلى هنا قريباً.. كما تعلمين فإن الموسم مزدحم للغاية!".

هكذا قالت موظفة الاستقبال بالمبيت، بابتسامة مشرقة ووجه هاش باش، وكأنما تبلغني بأني حصلت على جائزة الدولة التقديرية!

قلت في نفسي:

"لا بأس.. "أوراش" "أوراش" كل الخيارات أهون من شراكة فرانسواز".

كانت طرقات المبيت مظلمة ثقيلة، وكانت دورات المياه كئيبة غير مترفة، أما المصعد فكان قديماً متهالكاً، ولو كنت كمثلي من أصحاب فوبيا الأماكن المغلقة، فإنك حتماً ستفضل عليه استخدام السلم مهما كان منهكاً..

في طرقات المبيت المظلمة التقيتها.. مارسيل!

***

مارسيل.. هولندية مسنة ثرية كانت تقيم في المبيت.. من وراء تجاعيد وجهها وتغضن الرقبة واليدين، تبدو بقايا جمال كان..

كانت مارسيل أنيقة، مهندمة، نظيفة، مبتسمة، طلقة اللسان.. ومخبولة تماماً!

هذا ما تبيّنته بعد أن استوقفتني ذات عصرية في إحدى طرقات المبيت حيث كانت حجرتي وحجرتها، وبدأت تجاذبني أطراف الحديث.. كانت مخبولة بحق.. بشدة.. وكان الكل يعرف، وكل سكان المبيت يتعاطفون معها ويدللونها ويجارون حكاياتها الكثيرة المحبوكة.

كانت مارسيل من طراز النساء اللاتي يزيدهن الخبال جمالاً! فلولا خبالها ما أحببتها ولا تعاطفت معها ولا أظن أحداً كان يلتفت لها.. لوثتها العقلية التي جعلتها تتصور أن عميلي المخابرات الروسية يطاردونها في كل مكان كي يقتلعوا شريحة ما زرعها رجال المخابرات الأمريكية في دماغها، كانت هذه اللوثة هي ما جعلتها امرأة مميزة!

كانت معلماً من معالم المبيت.. الكل يعرف غرفتها، والكل يسأل عنها حين يكون لديه وقت يضيعه في حكاية بوليسية جديدة، والكل يهرب منها "بصنعة لطافة" حين يكون عليه أن يلحق بمحاضرة أو اجتماع !

ما يثير الدهشة في مارسيل أكثر أنها كانت بارعة في تحدث اللغات المختلفة، وكانت موسوعية المعرفة في التاريخ والحضارات.. وكانت من حين لآخر تجمع قصاصات الجرائد بالأطنان وتختفي لأيام مع جرائدها قبل أن تخرج علينا بتحليلات سياسية متماسكة حدّ الإدهاش.

وكانت لها أنامل ساحرة العزف على البيانو.

كانت مارسيل في كل نهاية أسبوع تتأنق ما وسعها التأنق، ترتدي فستاناً منفوشاً متكلف الأناقة، ترفع شعرها لأعلى وتثبته بدبابيس شعر لامعة كنجوم صغيرة متناثرة، مع لمسة خفيفة من زينة الوجه، ولا تنسى الحذاء ذا الكعب العالي، ثم تمر على غرفات المبيت غرفة غرفة داعية الناس إلى "الكونسرت" الذي ستحييه بنفسها الليلة!

كانت في ليالي تألقها تلك تتوجه إلى قبو المبيت، حيث بقايا أسرّة مكسرة وطاولات خشبية متهالكة ملقاة بغير عناية وكراسي بالكاد تصلح للاستخدام ومراتب مركونة لحين الاحتياج، وحيث كان يوجد بيانو عجوز مترب في أحد أركان القبو.. تحيي جمهورها، الذي هو نحن، المغتربون البائسون ذوو الشعور الشعثاء وملابس النوم المبعثرة، وفي عيونهم بقايا نعاس وإنهاك الأسبوع بطوله، ثم تجلس إلى البيانو

القديم المنهك يحيطها التراب من كل جانب لتبدأ في العزف بصدر منفوخ ورأس مرفوعة، كما لو كانت تعزف في دار الأوبرا في روما!

وكلما انضم لنا في قبو المبيت المزري زائر جديد، كانت توقف العزف، تقف لتنظر مَن الوافد، ثم تنحني انحناءة تحية متكلفة مع نصف ابتسامة، وتقول شيئاً ما بالفرنسية قبل أن تستأنف العزف..

لم أكن أخشى خبال مارسيل.. كانت على جنونها وكثرة هذيانها وانفعالاتها لطيفة كطفلة.. كان يمكنني أن أرى بوضوح في عينيها نقاء وخوفاً طفوليين.. كانت قابلة لأن توضع تحت السيطرة الكاملة بكلمة لينة أو كوب شاي مع قليل من الإنصات..

كثيراً ما استوقفتني مارسيل في الصباح الباكر قبل أن أغادر المبيت متوجهة لعملي، وشعرها مهوش ونظراتها زائغة لتسألني بصوت منخفض ولفتات بوليسية: "هل رأيتهم؟ رجال المخابرات الروسية؟ هل رأيتهم؟ فتشوا حجرتي وبعثروا أغراضي الملاعين.. أيتها السماء، هل سأظل هاربة منهم ما حييت؟!" فأقول في نفسي: "أصبحنا وأصبح الملك لله! اصطبحي يا مارسيل! لا يزال الوقت مبكراً جداً على حكاياتك الدسمة!".

كانت تحتفي بي حين أذكّرها بأني مصرية: "أنت فرعونية! يا للهول!! أنت من هؤلاء القوم البارعين في السحر وقراءة النجوم.. أنا لا أتحرك قبل أن تبارك عرافتي الغجرية تحركاتي.. وإن كان هذا قد كلفني ثروة طائلة!".

وحين كانت تجد مني مارسيل بالاً للإنصات وأمارات تصديق وانفعال كانت ترى أنه قد غدا من المناسب أن تورطني في قصتها أكثر: "احذري يا صغيرتي.. لقد رأوك معي وهم يعلمون أننا على اتصال.. سوف يقتلونك يا مسكينة!"

أنهكتني مارسيل كثيراً في محاولات احتوائها ومجاراتها، وطالما حاولت الهرب منها خشية أن أفقد صوابي أنا الأخرى في إحدى حكاياتها، لكن حين قررت المخبولة هذه أن عليها أن تغادر المبيت؛ لأنه غدا "مرتعاً لأوغاد استخبارات الكتلة الشرقية" علمت أني سأفتقدها.. حاولت أن أفهم منها إن كانت لديها أسرة أو قريب أو صديق يمكنه أن يرعاها، لكني لم أظفر منها بمعلومة تريح بالي، فقد كانت تهذي.. كانت تجيب أسئلتي بحكايات من طفولتها وقصص غير مترابطة عن العمة "لونا" الطيبة والخال "جوناثان" البدين.. لم أظفر بإجابة عما إن كان هناك من يمكنه أن يرعاها أم ماذا، فما كان أمامي إلا أن أودَعها بحرارة داعية أن يرعاها الله الذي لا ينسى عباده، خاصة المخبولين منهم!

التقيت مارسيل بعدها مراراً في حافلات عامة، تروح وتغدو بحقيبة سفر صغيرة تجرجرها خلفها كطفل يجرجر دميته، بينما تطل من حقيبتها قصاصات جرائد وزجاجة مياه فارغة، لكنها في كل مرة كانت تنكرني تماماً كما لو لم نلتقِ أبداً!

مرات كنت أمدّ يدي لأعدل من هندامها، أو لأرفع شعرها المتدلي بإهمال على جبهتها، فتنظر لي مفزوعة كقطة حبيسة خائفة من يدين

آدميتين ممدودتين إليها في محبسها، فأبتسم لأطمئنها قليلاً. وما أن أرفع يدي عنها بعد الهندمة حتى تبتسم لي في تردد ثم تسير مهرولة مبتعدة عني.

ثم جاء اليوم الذي اختفت فيه مارسيل من كل الحافلات.

***

هل قانوني هو الوقوع في حب الإنسان الخطأ؟

رضوى عاشور

أوراش

وأخيراً ظهرت الآنسة "أوراش" لتشاركني غرفتي الصغيرة..

كانت "أوراش" فتاة كندية تعود أصولها إلى دولة كازاخستان، التي انتمت سياسياً للاتحاد السوفيتي قبل تفككه، بينما ينتمي شعبها عرقياً للترك.

كانت لأوراش عينان ضيقتان مسحوبتان وفم دقيق وشعر حريري أسود ينساب على وجهها وجبهتها، وجسد ضئيل، فكانت تبدو كدمية معلقة في خيوط خفية، وإن كانت حادة المزاج عصبية، تسير رافعة أنفها في الهواء في كبر متأهبة على الدوام للاشتباك والمعاركة في أية لحظة ولأي سبب!

قضت معي أوراش أياما لا أدري عددها، نتشارك الغرفة والحمام صامتتين تماماً، وإن كنا على حافة الاشتباك الهستيري!

تصحو من نومها عابسة غاضبة عكرة المزاج، تكاد تبصق في وجهي قبل أن تغيّر ملابسها وتغادر بنفس العبوس والغضب الصامت، بينما ترميني بين الحين والآخر بنظرة نارية كأنما أنا بالذات وراء كل هذا الانزعاج والغضب.

وما أن تغادر الغرفة حتى أسمع صوتها محتداً متوعداً، وقد اشتبكت مع أحد سكان المبيت لسبب ما.. إما لأن أحدهم احتلّ دورها في طابور المصعد، أو زاحمها في دخول الحمام، أو التهم خبزها الأسمر بدلاً من خبزه الأبيض في الثلاجة، أو جبنتها البيضاء بدلاً من جبنته الصفراء!

وفي المساء يتكرر السيناريو ذاته: قبل دخولها إلى الغرفة في نهاية اليوم أسمع صوتها على أعتاب الغرفة تشتبك مع أحدهم قبل أن تندفع إلى داخل الغرفة هادرة غاضبة صافقة الباب خلفها، وهي تنظر لي في توحّش وصدرها يعلو ويهبط انفعالاً!

كنت كلما رأيتها أقول في نفسي: ما لي أنا يا ربي وهذه العبوة الناسفة المتحركة؟! ما لي أنا يا ربي وهذا الإعصار البشري المدمّر؟!

حاولت ذات مرة أن ألقي عليها تحية الصباح: علّها تلين لي قليلاً بالتواصل، فكانت نتيجة مغامرتي غير محمودة!

- صباح الخير، أوراش.

وما الذي يجعل هذا الصباح بالذات صباح الخير؟ ها؟ هو صباح آخر كباقي الصباحات.. لا داعي للمبالغة!

منذ ذلك اليوم تبنّيت معها تكنيكي المفضل في التعامل مع الحالات الإنسانية الحرجة: التعامل معها كما لو كانت غير مرئية! أوراش: كوني غير مرئية لي! لم أكن أنظر إليها ولا أتحدث ولا ألتفت لدخولها ولا خروجها ولا نومها ولا قيامها.. بل كنت أمرّ من أمامها دون أن يرفّ لي جفن، ولا تبدر مني التفاتة إلى كيانها المادي.. كأنما هي والهواء سواء!

كانت أحياناً تزمجر لي في الهواء كأنما تدعوني للالتحام معها على أي مستوى، لكني كنت منقطعة عنها تماماً، قاطعة جميع حواسي عن وجودها كأنْ ما كان لها وجود من الأصل!

لكن حتى مع تكنيك التجاهل التام لم يكن هناك بد من الاشتباك! فالاشتباك مع فتاة كهذه هو قدر لا يمكن رفعه ولا ردّه ولا تفاديه، بل لعل تجاهلي لها هو ما استفزّها أكثر، وعجّل بالمواجهة المحتومة!

وكان أن بادرت أوراش باختيار موعد القتال وجبهته!

كنت في فراشي أتأهب للنوم وهي كذلك كانت، وقد أظلمنا الحجرة تماماً، فإذا بها فجأة تنتفض من فراشها صارخة: "كفى! كفى أيتها المسلمة! صوت حبّات مسبحتك المنتظم هذا يهتك صمت الليل ويحطم جهازي العصبي"

انتفضتُ فزعة على صراخها ثم جلست في فراشي أنظر إليها نظرة حائرة مترددة غير عالمة حقاً بم أردّ على هذه المخبولة.. هل أصفعها على وجهها؟ هل أطردها من الغرفة؟ هل ألقي بها من النافذة؟ في النهاية قررت أن أصمت في هدوء، وأن أستمر في التسبيح كأن شيئاً لم يكن، إمعاناً في الإتيان على ما تبقّى من عقلها وجهازها العصبي معاً!

فلتشنقي نفسك متدلية من مصباح السقف يا حفيدة المماليك أنت!

استمرّ الهدوء الهش بيني وبين أوراش والمنذر بالتفجر في أية لحظة على هذا النحو أياماً حتى جاء يوم رأيت فيه وجه أوراش غير عابس ولا

غاضب.. كان يوماً صحوت فيه مريضة متألمة وحرارة جسدي مرتفعة، فكنت أهذي ويرتعش جسدي بغير توقّف..

أدركت الفتاة من ارتعاشي أني على غير ما يرام، فاقتربت من فراشي في صمت، ووضعت يدها على جبهتي ثم قالت: "أووه"، وأضافت شيئاً ما بالفرنسية، على الأرجح أنه شيء ما من قبيل: "ألا لعنة الله عليك أن أفسدت يومي!"

قضت أوراش ذاك اليوم كله إلى جوار فراشي بغير أن تنطق بكلمة، وفي غير عبوس ولا غضب، فقط بوجه فاتر محايد وافد من عالم الأطباء الذين يخدمون في مناطق الكوارث والحروب. كانت تعدّ لي المشروبات الساخنة، وتناولني الأقراص الخافضة للحرارة، وتضع لي قطع القماش المبللة على جبهتي وظهري بآلية ووجه بارد، حتى بدأت في التعافي في فجر اليوم التالي، وحين شكرتها لم ترد!

في عصر اليوم التالي جاءتني أوراش صامتة كعادتها، لكن شيئاً ما في مزاجها لم يكن إعصارياً ولا تفجيرياً! وكنت أجلس متكومة على أرضية الغرفة تحت النافذة أتسلى بقراءة إحدى مسرحيات محمد الماغوط، وفي يدي قدح شاي وقد ارتديت غطاء رأس صوفياً ملوناً بكل لون في الدنيا، وجوارب صوفية بنفسجية اللون فكنت، ولا بد، أبدو كامرأة عجوز كانت تعمل في صباها "مساعد بلياتشو"! اقتربت مني أوراش في صمت ثقيل، ثم قالت:

أنا راحلة عن هنا.. ذاهبة إلى بغداد.. سألتحق بفريق عمل مفوضية غوث اللاجئين هناك.. هذا نجاح كبير لي في مسيرتي المهنية..

صمتت كأنما لتستجدي مني رد فعل، لكني ظللت صامتة أتأمل الفتاة في طورها الغريب هذا، فلا هي تبدو غاضبة كعادتها ولا هي تبدو سعيدة بنقلتها المهنية هذه ولا تعيسة بمغادرتها.. كانت في حال لم يستدعِ مني إلا الصمت ومحاولة الفهم.

فجأة تغيّرت نغمة صوتها، فتلوّن بلون الاحتقان والنقمة:

- أنا تعبت من السفر والترحال!

أها! الآن بدأت أفهم.. تعالي يا صغيرة وبوحي الآن بما في صدرك!

استمرّت أوراش في الحديث دون أن تنظر في وجهي، وكأنما تتحدث في خاطرها:

- هل سأظل بقية عمري هكذا أتنقل من جنيف إلى هونج كونج، ومن تورنتو إلى طرابلس، ومن كوبنهاجن إلى بغداد؟! أنا أحلم بالزواج ككل الفتيات.. أحلم ببيت صغير به أريكة كبيرة مريحة مملوءة بالوساند والأغطية الصوفية الملونة أمام التلفاز، حيث سأمارس مع "أندرو" الحب بلا انقطاع وبنفس الحماسة.. لكن "أندرو" يرفض أن يتزوجني.. فأبوه مصاب بالجنون وملقى في مستشفى ريفي في نيوجيرسي منذ سنوات، وهو يخشى أن يكون الجنون كامناً في خلاياه فيورثه لأبنائه.. لذا فـ"أندرو" لن يتزوجني.. لكني في قرارة نفسي أعلم أن هذه مجرد حجة اختلقها ليتملص من الارتباط بي مدى الحياة.. أما الحقيقة أنه

يظن أني أمارس السحر الأسود! هو ككل الأمريكان، يظنون أن كل رجل مسلم متزوج من أربع نساء، وأن كل ياباني محارب ساموراي، وأن كل فتاة من آسيا الوسطى تمارس طقوس "الشامانية"! لكني لا أمارس طقوس الشامانية.. أقسم لك إني لا أفعل.. أمي كانت تمارسها برفقة أمها في قريتهما في كازاخستان قبل أن تهاجرا إلى كندا، فكانتا، حسب ما حكت أمي، تستحضران أرواح الأجداد وتتحدثان إلى الموتى وكل هذه الطقوس.. أما أنا فلا.. صحيح أني كنت أحضر بعض طقوس الشامان، وأن أمي ورثتني الكثير من الكتب والحكايات والعادات التي تجد جذورها في هذه العقيدة الوثنية، لكني حتى لا أومن بالغيب، فكيف أعتنق الشامانية؟!"

كانت تحكي بوجه عصبي مكابر وبعينين مختنقتين بالدموع وصوت مشحون بالغضب والحنق على السماء ذاتها، وكنت أنا أنصت جامدة وقد تصلّبت أصابعي حول قدح الشاي، واحمرّت أنفي كتمثال امرأة مصابة بالزكام!

يا ربي ما لي أنا وما للشامان والسحر الأسود والطقوس الوثنية القديمة؟!

أنهت أوراش حديثها دون أن تكترث لتعليقي، ثم قامت على الفور تعدّ حقائب الرحيل في صمت متوتر دام يومين حتى حانت لحظة رحيلها التي لم تكن مشحونة بالكثير من العاطفة: صافحتني أوراش في برود

مصرحة لي باستخدام المأكولات الخاصة بها في ثلاجة المطبخ العمومي للمبيت!

ستجدين في ثلاجة المبيت الجبن التقليدي الذي تصنعه النسوة في كازاخستان.. جبن مصنوع من لبن الحصان.. وستجدين كذلك بعض شرائح لحم الحصان المحمرة مع النبيذ.. يمكنك أن تجربيه.. أنا أعرف أنكم في بلاد العرب لا تأكلون الحصان.. لكن جربيه على أي حال!

قالتها ثم غادرت في صمت متحفز متصيد ينذر بانفجار قريب جديد!

لا بأس! بغداد تحتمل أناساً منذرين بالتفجر أكثر من غيرها من مدن العالم على أي حال.. اذهبي إلى بغداد أيتها الكتلة العصبية فلربما علّمتك المدينة المفخخة كيف تكون الانفجارات اللائقة!

***

الشامان هم سحرة دينيون موطنهم سايبيريا وآسيا الوسطى ويقولون بأن لديهم قوة تتغلب على النيران، ويستطيعون إنجاز الأمور عن طريق جلسات تحضير الأرواح التي فيها تغادر أرواحهم أجسامهم إلى عوالم الروح. والشامانية دين آسيوي بدائي يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف.

ويتميز الشامان بقوه وطاقة عالية تمكنه من طرد الأرواح الشريرة والتحكم بها. ويولد الشامان بقوته أو يترقى ليصبح شامان، ويعطي قوته من قبل معلمه، وهي قوة قد تُتوارث من جيل لآخر.

Jingle Bells

إنها أيام الكريسماس في كوبنهاجن..

الثلوج تكسو الأبنية والأرصفة والشجر والمحال.. أتسكع في الشوارع "المثلجة" فأحس أني "بياض الثلج" وإن كنت بلا أقزام سبعة.

يلفح الريح البارد وجهي فتحمر أنفي وتبتلّ أطراف شعري المنفلتة من تحت الآيس كاب الصوفي..

المحال التجارية تبدو رائعة وقد اكتست بالبهجة.. كل الواجهات الزجاجية لامعة تكشف عن معروضات ملونة باللونين الأبيض والأحمر.. شجرات عيد الميلاد العملاقة في المحال الكبيرة والمراكز التجارية، والصغيرة منثورة على أرفف المحلات الصغيرة.. أجراس ذهبية صغيرة معلقة في كل مكان.. عرائس البابا نويل تقف على أعتاب البيوت مبتسمة محيية الرائح والغادي.. علب الهدايا اللامعة الملفوفة بعناية هنا وهناك تغريك بفضّ أغلفتها المفرحة وكأنها تعدك بشيء ساحر يقبع في عمق الصندوق.. الكنائس أبوابها مشرعة لاستقبال "أبناء الرب"، لينصتوا إلى القساوسة مرحبي الوجوه المبتسمين ذوي الشعور اللامعة والنظارات المستديرة الصغيرة.. المقاهي تنثر رائحة

القهوة المحمصة ومخبوزات القرفة الدنماركية التقليدية في الهواء، والبارات تفوح منها رائحة الشراب وتملأ الأجواء من حولها بالموسيقى الصاخبة وضحكات السكارى محمومي الرقصات..

حتى دكان الحلاق المغربي الصغير "عزيز الشهباني" في "الجيتو العربي" كان يعلق فرعي زينة باللونين الأحمر والفضي متقاطعين على بابه الزجاجي!

وكان صبي الحلاق عادة ما يغازلني بعبارة أو اثنتين بالفرنسية في روحي وغدوي من أمام دكانه، فيثير فضولي لأعرف معنى ما يقول، وإن كنت أفهم تماماً من نبرة صوته أنه يتودّد بصورة ما!

كوبنهاجن مدينة صغيرة أنيقة قديمة كوزموبوليتانية ومثلجة!

كم تسكّعت في شوارع هذه المدينة، بمظهري العربي وسلسلتي الفضية معلق فيها لفظ الجلالة، أثير فضول العرب الذين لم يعتادوا تسكع "بناتهم" وحدهن ليلاً، ولامبالاة الدنماركيين في الغالب وعنصرية بعضهم أحياناً..

أغرتني أجراس الكنائس وأصوات الصخب من داخلها المنير، فقررت أن أمضي ليلة الكريسماس بصحبة "أبناء الرب"، أشاركهم إنصاتهم لإحدى العظات، فدلفت إلى كنيسة كبيرة عتيقة في وسط العاصمة.. طراز الكنيسة المعماري يذكّرك بعصور أوروبا المظلمة.. بناء قادم من القرون الوسطى في رائحته وتكوينه وحضوره الثقيل.. تذكرت أستاذتي "تي درست عليها مادة الحضارات، وكانت مسلمة متدينة متحيزة

لانتمائها الحضاري: إذ كانت تقول إن كنائس الشرق فيها نورانية مدهشة على خلاف كنائس الغرب الموحشة.

جلست إلى جوار الجالسين في الصفوف الأمامية للكنيسة أنصت للقس الوسيم الذي ألقى عظته بالإنجليزية..

نظرت حولي، فوجدت الفتيات على اختلاف أعراقهن حسناوات مشرقات أنيقات، بينما كنت أنا مبعثرة المظهر بحذاء غير لامع، وشعر أقرب إلى الشعث منه إلى الهندام.. كنت ليلتها أكثر شروداً من أن أنظر ما ألبس وكيف أبدو.. فقد كنت أبحث عن شيء ما يبدد وحدتي والبرد المتشبث بأطرافي.

خجلت من مظهري المبعثر لوهلة، ثم قلت في نفسي إني في بيت الرب! من ذا الذي يحكم على أحد بمظهره في بيت الرب؟!

أنصت للقسّ الذي قال أشياء كثيرة عن صلب المسيح، وعن الحب والافتداء، بعدها أخذت مجموعة من المراهقات تترنّم من كتاب ترانيم باللغتين الإنجليزية والدنماركية.. لم أفهم كثيراً من كلمات الترانيم، لكن نفسي تشبعت بالمرح الذي كان منشوراً في هواء القاعة.. تسللت بينما تترنّم الفتيات بهدوء خارج القاعة، آملة ألا يسألني أحد الفضوليين عن أي شيء يخص عقيدتي أو أرض أجدادي أو لم أنا هنا أو عن أي شيء من أي نوع.. لقد أدمنت الصمت في كوبنهاجن.. كانت رغبتي في الكلام تتآكل هناك في كل يوم حتى كدت أنسى صوتي!

دلفت إلى قاعة أخرى من قاعات الكنيسة أستكشف ما هنالك. كانت القاعة الأخرى مهيبة لا يسودها المرح ولا البهجة.. قاعة مظلمة صامتة لا ثرثرة فيها على الإطلاق.. فقط صوت موسيقى جنائزية مهيبة ينبعث من مكان خفي فيثير في النفس شيئاً من الرهبة.. في الواجهة تمثال ضخم للسيد المسيح مصلوباً، حيث يتحلّق جمع صغير تحت قدمي التمثال، وفي وسط حلقتهم شموع صغيرة كثيرة جعلت وجوههم تتراقص ملامحها مع تراقص نيران الشموع.. كانوا صامتين مغمضي العيون كأنما يمارسون طقساً روحياً ما.. اقتربت منهم في فضول هادئ فأفسح لي أحدهم مكاناً في الحلقة كي أغلقها بجسدي.. لم أدرِ ما أفعل لكني جلست.. أغمضت عيني كمثلهم غير عالمة ما المرتجى من هذا التحلق الصامت. لكني ذكرت نفسي بالمثل الإنجليزي القائل: "إن كنت في روما فافعل كما يفعل الرومان"، فقلت في نفسي: "وإن كنت في حلقة فافعل كما يفعل المتحلقون"!

بعد وقت غير طويل من الصمت بين الصامتين، بدأت أرى صوراً متعاقبة غير مفهومة.. صوراً لم تنبع من ذاكرتي أنا البصرية، ولا من خيالاتي.. صوراً فرضت نفسها عليّ ولم أدرِ من أين وفدَت!

قطع صمتنا صوت أنثوي في نبرته شيء من السلطة، طالباً من كل واحد وواحدة من الحضور أن يروي ما رأى، فأدركت أن صاحبة الصوت لها اليد العليا في هذه الحلقة الطقسية.

قالت امرأة من بيننا إنها رأت ابنها المنتحر يجلس في الحلقة حزيناً أسفاً مطرق الرأس، ثم رفع رأسه إليها وابتسم قبل أن يختفي!

وقالت أخرى إنها رأت عصفوراً ملوناً حط على كتفها ونقرها نقراً خفيفاً في جانب رقبتها ثم طار مبتعداً.. وقال رجل مسنّ أبيض الشعر محمر العينين إنه رأى امرأة رائعة الحسن تلبس البياض الثلجي رفيفاً شفيفاً مرّت بيدها على رؤوس الحضور واحداً تلو الآخر. كما لو كانت قديسة تبارك أبناءها.

البقية قالوا -محبطين- إنهم لم يروا شيئاً، بينما لزمت أنا الصمت.

نظرت لي السيدة ذات الصوت الحازم بابتسامة وقالت: "والسيدة الشابة؟ هل من شيء تودّين مشاركته مع الجمع؟"

قلت خائفة من تردد صوتي في فراغات المكان:

رأيت وجوهاً لرجال يبدو من سمرتهم ولحاهم أنهم شرق أوسطيون. كانوا هنا.. خلف تمثال السيد المسيح الضخم.. كما لو كانوا مختبئين أو يراوغون خطراً يوشك أن يداهمهم ويدهمهم.. واحد منهم كان يقول في خاطره: "إن لم يحمني الله في بلادي فربما يحميني المسيح في هذه الأرض الغريبة".. كنت كأني أسمع خواطره!

صمتّ.. فحثتني المرأة على الكلام بابتسامة:

- ثم؟

قلت:

- ثم صوت رقع وقرقعة عنيفة.. ثم اختفت الصورة!

قالت بصوت رسمي للجميع:

- انتهت الجلسة.. أراكم الأحد القادم!

انصرف الآخرون كأنما اعتادوا الأمر، ولم تعد الرؤى أو العجز عنها يثير بداخلهم أسئلة. أما أنا فكانت علامات الاستفهام تتقافز في ذهني.. اقتربت منها ودون أن أنطق كلمة فهمت ما أرمي إليه، فقالت مفسرة في أسف:

قبل عدة أعوام احتمى عدد من طالبي اللجوء العراقيين بالكنيسة لأسابيع، بعد أن صدر قرار بترحيلهم قسراً لبلادهم.. كان العراق آنذاك غارقاً في بحر دم.. لم يكن بمقدورهم أن يعودوا ليلقوا حتفهم.. بعضهم كان محكوماً عليه بالإعدام، والبعض الآخر كان محكوماً عليه بالسجن الطويل الذي يتضمن، بلا أدنى شك، التعذيب!

احتموا بالكنيسة على أمل أن يرقّ قلب السلطات الدنماركية لحالهم البائس، فلا ينفذوا فيهم قرار الترحيل القسري.. لم يكونوا يعلمون أن السلطات في الدنمارك، خاصة وزارة الهجرة، لا قلب لها! اقتحمت الشرطة الكنيسة عليهم، واعتقلت من اعتقلت فلاقى كلٌّ مصيره..

أنصتّ لها صامتة.. لم أعلم تحديداً هل عليّ أن آلم من أجل العراقيين الذين رحلوا لوطنهم الحقود أولاً أم أندهش لأني "التقطت" تلك الصور أثناء هذه الجلسة الروحية المربية قبلها؟!

- لماذا رأيت تلك الصور؟ وكيف؟

هي قدرة خاصة يمكن تنميتها بالممارسة.. هل تودين الانضمام إلى حلقتنا بصورة منتظمة؟

- بالطبع لا!

***

وتقول الأسطورة الإسكندنافية إن كبير الآلهة قام باستحضار روح الإلهة "فولفا" وأراد منها كشف الماضي والمستقبل. فكرهت الروح أسئلته، وظلت تجيبه لماذا تسألني؟ فكان يجيبها أنه كملك الآلهة يجب أن يتسلح بالعلم والمعرفة. وبعد أن كشفت الروح الماضي والمستقبل، اختتمت كلامها قائلة: إني أغرق الآن، ثم اختفت في غياهب النسيان.

***

بينما كانت تحتفل كوبنهاجن بعيد الميلاد المجيد، وأنا منشغلة ببرد ديسمبر ووحدتي قررت الخالة أن تموت!

قبل أن تموت الخالة بيوم جاءت تودّعني في منامي!

- "طول عمرك صاحبة واجب يا خالة".

جاءتني مسبلة العينين مبتسمة ملفوفة في كفن أخضر تفوح منه رائحة المسك.. ومن ورائها الجدة -رحمها الله- فرحة تستعد لاستقبال ابنتها ها هناك.

"استني يا حبيبتي.. سيبيني ألحق أعمل صينية بطاطس لخالتك.. خالتك على وصول".. قالت الجدة في منامي.

هاتفت أمي ليلتها، وكنت أجلس مقرفصة تحت برج أثري ضخم مهيب الهيئة يقول الدنماركيون إن في أعلاه مشنقة كان يُعلّق فيها الخونة في القرون الوسطى، حتى تتآكل جثثهم في الهواء.. ثرثرت كثيراً وأمي وحكينا عن كل الأشياء كالعادة ثم:

- استعدي يا أمي.. فالخالة في طريقها لملاقاة ربها.

أعلم يا حبة عيني.. حالها حال المصلوب بين عالمين.. وأرى أمواتنا يجيئون ويروحون في ردهات البيت منذ أيام.

- إنا لله.. تصبري.

- أنت كذلك كوني بخير في غربتك.

في اليوم التالي غادرت الخالة في سلام..

لم يفتها أن تعاود زيارتي في المنام بعد وفاتها بيومين لتقول لي إنها فرحة "حيث هي".. ينغّصها فقط أنها تشتاقنا.

يوماً ما نلتقي يا خالة.. طال انتظارك أم قصر..

***

عند موت من نحبّ نكفّنه. نلفّه برحمة ونحفر في الأرض عميقاً. نبكي. نعرف أننا ندفنه لنمضي إلى مواصلة الحياة.

رضوى عاشور

ميشيل

صحوت في ذاك اليوم في مزاج يسمح بالتأنق.. لا أدري فيم كانت رغبتي في التزين ذاك الصباح، لكني أحببت أن تكون صورتي حلوة يومها..

خلعت ساعة يدي، وقلبت المنبه على وجهه كي لا يشغلني تأخري عن موعد عملي عن التزين!

قمت فارتديت فستاناً قصيراً لونه مقتبس من زرقة قباب سمرقند وأزهار اللوتس على جدران معابد الفراعين! وضعت على كتفي جاكيت أسود قصيراً وارتديت حذاءً أسود عالي الرقبة وأطلقت شعري هائجاً في موجات كثيرة، ورسمت عيني بالكحل، ثم لففت منديلاً أسود صغيراً حول رقبتي؛ إمعاناً في التكلّف!

تأخرت على موعد الدوام!

لا بأس.. سيوبّخني "ميشيل" محاولاً تصنّع الصرامة، ثم لن يمر النهار قبل أن يدعوني لاحتساء القهوة معه على سبيل الترضية في أحد المقاهي الأنيقة قرب مقر المنظمة الحقوقية التي نعمل بها..

"ميشيل"..

مديري الفرنسي اللطيف ذو الإنجليزية المشربة بالفرنسية.. كانت تضحكني إنجليزيته بينما يقلب كل "راء" إلى "غين" فرنسية لطيفة، فلا تدري لوهلة إن كان يحدثك بالإنجليزية أم الفرنسية!

كان ما بيني وبين "ميشيل" أكبر وأهم وأقوى وأحلى وأبقى من علاقة رئيس بمرؤوسته.. كان بيننا ضحك! ضحك كثير ممتد ورائق في كل وقت.

ساحر هو الضحك حين يؤلف بين القلوب.. يكتب الروائيون أشياء كثيرة عن قدرة الحزن على أن يجمع الحزانى ويؤلف بين قلوبهم بالأنين.. لكنهم يغفلون الضحك.. ذلك الصوت الهادر التلقائي المملوء بالرضا عن الأقدار والتصالح مع اختيارات السماء مهما قهرتنا، والقادر على أن يربط نفسين بلا شائبة بحيث تتضاءل أمامه كل أطماع الحياة وتكلفها وبهون كل لهاثها.

كنت وميشيل نتربص للضحك سوياً، نتصيّده، نترقّبه.. يضحك فتصيبني العدوى وأضحك.. أضحك فتصيبه العدوى ويضحك.. لا يمر يوم لا تأخذنا فيه موجة ضحك قصيرة أو طويلة.. وإن عبس أحدنا يوماً، كان لزاماً على الآخر أن يضاحكه حتى يضحكه.. كان الضحك عهدنا، وإن كان علينا أن نؤدي دوري الرئيس والمرؤوس بأكبر قدر ممكن من الجدية والإجادة.

والحقيقة أن ميشيل كان رئيساً مزعجاً كثير الطلبات، لديه نزوع كمالي غير واقعي، يرهقه ويرهق من معه.. كان طموحاً ملتزماً لا يملّ العمل،

ودقيقاً، وكنت أنا كثيرة الشرود قليلة التنظيم سريعاً ما أسقط فريسة الإحباط.. كان يجهدني بأوامره المتعاقبة الكثيرة ورؤاه لمستقبل المشروع الذي كنا نعمل عليه سوياً..

كنا نختلف كثيراً أثناء العمل، ينفد صبره من شرودي، وأكاد أختنق أنا من نزوعه للكمال، فنصطدم وندخل في مواجهات سخيفة حول تفاصيل المشروع الذي كان لدعم سجناء الرأي في المنطقة العربية ودعم أسرهم.. لكن في نهاية كل يوم عمل كنا نتصافى من دون ولا كلمة.. فقط بالضحك المجلجل، عالمين أننا سنتخاصم في يوم العمل التالي قبل أن نتضاحك فرحين بنهاية اليوم!

كنا نكتب تقارير عن السجون ونضحك، وننظم مؤتمرات عن أُسر السجناء ونضحك، ونطلق حملات مناهضة للتعذيب ونضحك، ونرصد المستحدث من أدوات التنكيل ونضحك، ونخرج في مظاهرات ضد اختفاء السجناء القسري ونضحك.. كنا نستقوي بالضحك في مواجهة قبح كثير، ولأن البديل عن الضحك كان إحساساً مفزعاً بالعجز.

***

وضحكنا ضحك طفلين معا وعدونا فسبقنا ظلنا

***

تأخرت على ميشيل بالفعل، لكني قررت ألا أستقل الحافلة مؤثرة عليه السير، كأنما أشاطر الشوارع والأرصفة ومنتظري الأتوبيس

وأصحاب محلات الورد والبيتزا والمقهى قرب المبيت، أشاطرهم جميعاً استثنائية أناقتي..

في محل الخباز وقفت أختار كعكة شهية بالشوكولاتة والقرفة.. اقترب مني رجل يلبس عمامة السيخ الهنود قائلاً بالإنجليزية:

أنا أقرأ الطالع.. يمكنني أن أنبئك عن تلك الحية الرقطاء التي تتظاهر بالوداعة والمحبة لك، بينما تنتظر أول فرصة لتسمّم حياتك بأسرها!

- قديمة! عملناها في مصر كتير دي!

excuse me-!

غادرت المحل مبتسمة مفكرة في أن الرجل غير محنك في فنون "الدهلكة" بما يكفي لدهلكة فتاة مصرية!

ما أن خطوت بضع خطوات خارج محل الخباز حتى استوقفني شاب ذو بشرة داكنة، وقال شيئاً ما بلغة لم أفهمها، لكني خمّنت أنها "الأردو" فقلت:

- عفواً، أنا لا أتحدث الأردية.

- ولا أنا يا آنستي! بل البنجابية! ظننتك من بلادي.

- لا والله للأسف!

- أنا لا أشرب الخمر يا آنستي.

- معذرة؟!

- ولا أزني.

- خير إن شاء الله!

وأصوم رمضان وأصلي الجمعة وأحب أمي وخالاتي وأدرس بكدّ.. تخصصي إدارة الأعمال، وأعمل مؤقتاً عامل نظافة في فندق صغير في أطراف المدينة.. لكن هذا الوضع مؤقت ولن يستمر طويلاً.. هل تزعجك طبيعة عملي يا آنستي؟

- لا إطلاقاً!

- هلا وافقت على الزواج منّي إذن؟!

- مع الأسف لست في مزاج يسمح بالزواج هذه الأيام!

- إحم.. أنا أسحب عرضي إذن.

- أشكر لك تفهّمك!

تركته وسرت في طريقي مندهشة أتكتم ضحكتي! مَن هذا؟! وهل من الممكن حقاً أن تتم زيجة هكذه؟ على قارعة الطريق؟ بمجرد أن يقدم "العريس" نفسه بوصفه لا يعاقر الخمر ولا يزني ويحب أمه وخالاته؟! هل ظنّ حقاً أن هذه المقدمة كافية لكي نبدأ مشروع زواجنا من هنا.. من على هذا الرصيف بالذات، ومن أمام محل الخباز تحديداً؟

مضيت في طريقي بمزاج جيد لا يعكر صفوه إلا خشية أن يعكر أحدهم صفوه!

وصلت لمكتبي فسمعت بأذني خيالي زمجرة ميشيل وهو ينظر في ساعته دون أن ينظر في وجهي، فجلست مختبئة محتمية بشاشة الكمبيوتر.

وزدت فوضعت سماعتي الأذنين الكبيرتين على رأسي، كأنما أتمنى عليه ألا يعكر مزاجي بالتوبيخ!

لكن هيهات! ما أن طالعت بريدي الإلكتروني حتى وجدت توبيخاً من سطر واحد أرسله ميشيل لحظة رآني:

"ماذا بك أيتها الشاردة؟ أفضل لك أن تغادري المكتب وتعتبري اليوم إجازة"

لم أردّ.. تجاهلت رسالته، واستأنفت مطالعة باقي الرسائل. كانت هناك رسالتان، إحداهما مناشدة من رجل إيراني مشفوعة بصورة لرجل يتدلّى مشنوقاً على رافعة حديدية في مكان عام، قال في رسالته أشياء كثيرة ثم:

وها أنا ذا أناشد منظمات حقوق الإنسان جميعها كي تتدخل وتدافع عن حق ابنتي في الحياة.. نعم.. ابنتي ذبحت زوجها على مرأى من أطفالهما ومسمع.. لكن ألا يسأل العالم لماذا قتلته؟ وقد كان سكيراً شرساً زانياً يغتصبها ويضربها ويجوّعها وأبناءها؟ أنا لا أطالب لابنتي بالتعاطف ولا بالعفو.. فقط أطلب ألا تُعلّق من رقبتها في أحد ميادين طهران! دعوها تعيش خلف القضبان.. امنحوها فرصة لتكمل تعليمها فتصبح امرأة أدنى إلى الصلاح.. دعوا زهرتي الصغيرة تعيش على الأقل من أجل أطفالها.. حتى القتلة لهم الحق في الحياة".

اغتممت!

الرجل هذا أتاني من طهران إلى مخبئي المثلج في كوبنهاجن كي يُحمّلني أمانة ما لا قبل لي بها.

دعها تغادر عالمنا يا رجل! لقد ثأرت لنفسها ولكل امرأة في مكانها وكفاها شرفاً.. ماذا كانت ستتعلم ابنتك في السجن مدى الحياة سوى المرارة والحقد عليك وعلى زوجها، وعلى كل من أشاحوا بوجوههم عنها حين احتاجت ملاذاً؟

الآن تدافع عن حقها في الحياة؟ ولماذا لم تدافع من قبل عن حقها في الحياة كإنسانة بدلاً من أن تدع زوجها يعذّبها ويُجوّعها ويقتات على كبريائها وكرامتها الإنسانية؟ الآن، لحظة أن همّوا بفصل رقبتها عن جسدها، تتذكر أنها ابنتك، وأن عليك أن تلجأ لمن يساعدها في محنتها؟ لمن يمنحها الحياة؟ أية حياة في ظل رجال كمثلك ومثل زوجها؟

دعها تموت في سلام أيها الأب الشاحب.. نساء عشن حياة كحياة ابنتك تستحققن الموت بلا جلبة يثيرها رجال شاحبون ليس لهم من الرجولة إلا الشوارب.. رجال كانوا يظنون أن مصيرها بأيديهم.

تأملت في الشمعة الصغيرة الموضوعة على مكتبي، وزفرت بحنق فانطفأت الشمعة، فنظرت لي "كارلا" الحسناء المرحة بعينيها الزرقاوين الواسعتين، وسألتني مبتسمة محركة رأسها بشعرها الكستنائي الحريري إن كنت في مزاج جيد، فقلت لها بالعربية المصرية وبحزم "لأ".

وكحال الموظفين الدوليين فإن الكل يعرف الكلمات المفتاحية في لغات زملائه، وكنت قد أدخلت مفرداتي الأكثر استخداماً على قاموس الزملاء الدنماركيين والفرنسيين منذ الأيام الأولى لعملي هنا: "لأ"، "نعم"، "شكراً"، "أف"، "بالصلاة ع النبي"!

الـ"لأ" التي قلتها كانت كافية كي تتراجع "كارلا" الجميلة عن أي محاولة أخرى لإظهار التعاطف معي!

الرسالة الثانية في بريدي كانت من زوجة سجين سوداني.. ترددت قبل أن أطالع محتواها، ثم رضخت من منطلق أنهم "ضربوا الأعور على عينه"، وأنها لن تكون أكثر تعكيراً للصفو من رسالة صاحبنا الإيراني..

عذبوه في سجونهم لا لشيء إلا لأنه رفض حكمهم.. لم يحكِ مذ خرج من السجن.. لم يفتح فاه حتى.. زوجي، أبو أبنائي صامت كتمثال أبنوسي جميل حزين.. ما نفعكم أنتم يا مُدّعي الدفاع عن حقوق الإنسان؟ ما جدوى وجودكم في مكاتبكم الأنيقة وقاعات الاجتماعات المكيفة، بينما كان الطغاة يسحقون زوجي؟ يسحقون أمان أولادي وحب عمري...

قالت أشياء أخرى تسائلني بها عن جدوى خلقي من الأصل، فلم أكمل قراءة الرسالة.. أرسلت الرسالة نفسها forward لميشيل مشفوعة بسؤال: "صحيح يا ميشيل.. ما نفعنا؟ سأغادر.. اعتبر أنك لم ترني اليوم".

غادرت المكتب مثقلة أمام نظرات ميشيل الغضبى.. لم أنظر إلى الوراء.. لا مكان للضحك اليوم يا ميشيل.. ادّخر لي ضحكة اليوم كي نتقاسمها غداً.

أيتها السيدة السودانية زوجة التمثال الأبنوسي الحزين.. أيها الأب الإيراني ذو الابنة القاتلة المحكوم عليها بالإعدام.. شكراً على بريدكما، لكن اعلما أن الحزن لأجلكما لم يكن ضمن خططي لليوم!

كان عليّ اليوم كذلك أن أنقح دورية سورية شهرية يحررها سراً وبأسماء مستعارة عدد من الفنانين والمعارضين السياسيين من مختلف المدن السورية، وكان مشروعنا يدعم طبع الدورية ونشرها.. محرر الدورية قرر أن يفتتح عددها الأخير بنصّ كتبته فتاة سورية شابة عن لحظة اقتحام رجال الأمن بيتها لاعتقال حبيبها والزج به في عتمة السجن إلى أن يقضي الله أمراً.. عذرا أيتها السورية الشابة، لن أقدر أن أنقّح نصّك المشحون بالخوف اليوم.. يكفيني ما أتاني من إيران والسودان لهذا الصباح.. فلتنتظر سوريا للغد إذن!

وقفت شاردة أنتظر الحافلة A٦ لتقلني إلى حيث المبيت.. كنت أحس بقدر هائل من التعاسة يكتنفني، لست أدري من أين أتى تحديداً، وما كان بابه لمهاجمتي.. ربما هو الإحساس بالعجز عن التغيير.. أو ربما ألقتني رسالتا بريدي الإلكتروني اليوم من جديد في يمّ الأسئلة الوجودية التي لطالما أسلمتني للأقراص المنومة ومضادات الاكتئاب..

غالباً سيكون لي موعد اليوم مع قرص منوم وبعض الموسيقى الأرمنية الحزينة!

فيم كانت دراستي لنظام حقوق الإنسان العالمي هذا؟ يا فرحتك يا أمي بشهادة الماجيستير التي حصلت عليها من بلاد الخواجات!

لماذا لا يأتي الأتوبيس؟ لماذا تأخر؟

بينما أقف هكذا منتظرة تطوحني الأسئلة إلى الأفكار السوداء وجدت ميشيل مقبلاً نصف مبتسم نصف متجهم..

- ماذا تنتظرين هنا؟

أتوبيس A٦.. أحتاج لأن أختبئ في غرفتي قليلاً.

- حلوتي الصغيرة، ماذا أفعل بعقلك الخرب هذا؟ A٦ لا يمر من هنا.. عليك أن تأخذيه من الجانب الآخر!

أدركت لحظتها أني أرتكن منذ أربعين دقيقة كاملة، وفي هذا الصقيع إلى عمود محطة غير محطتي المنشودة! نظرت إلى ميشيل في ارتباك خجل، وضحكت ضحكة قصيرة فربت ظهري مبتسماً مشفقاً، وقال:

هيا بنا إلى محطتك.. تبدين جميلة اليوم.. هل من معجبين شرق أوسطيين وقعوا صرعى فتنتك اليوم؟

- نعم.. واحد يتحدث البنجابية ويحب أمه وخالاته، وعلى أتم استعداد لأن يتزوجني بعد انتهاء دوام عمله الليلة!

- ممتاز.. لا تفوتي الفرصة يا كعكتي المفرحة!

هكذا كان يناديني مدللا مشاكساً.. "كعكتي المفرحة" كنت أحبها منه كثيراً وأفرح عندما يناديني بها.. "كعكتي المفرحة" أنا كعكة مفرحة! بكل مخاوفي وشرودي وانتكاساتي كعكة مفرحة!

كان يعرف ميشيل أن مزاجي عطب، وأني سقطت صريعة الأسئلة الكبيرة مرة أخرى.. ضمّني إلى صدره طويلاً بمودة، ثم همّ أن يغادرني عائداً إلى المكتب.. ناديته بصوت خفيض متشبث:

ميشيل.

- Qui؟

- إذا جاء يوم فقدت أنا فيه إيماني بحكاية حقوق الإنسان هذه برُمّتها، وقررت أن أكسب لقمة عيشي من مجال أكثر ربحية وأقل استنزافاً نفسياً، فرابط أنت في موقعك.. تمسّك أنت بحلم "تغيير العالم"

- أيتها السيدة العربية اليئوسة.. أنا فرنسي.. أنا من ثار أجدادي ثورة الخبز والدم.. أنا من بلد نتعلّم فيه في مدارسنا أول ما نتعلم أن لنا حقوقاً، وأن علينا أن نكون كالألم في المؤخرة حتى نحصل عليها.. أنا لا أيأس يا حلوة.. اذهبي أنت واعثري على ثري عربي يتزوّجك ويدلّلك، أما أنا فسأحمل لواء قضيتي حتى قبري!

تلبّستني فجأة روح الفنانة الراحلة "زينات صدقي" وكدت أرد عليه بـ"يا خويا اتنيل" التي رأيتها أنسب ردّ على نعرته الفرنسية الشوفينية تلك، لكني لم أدرِ كيف أترجمها للإنجليزية، فصمتّ مبتسمة!

كنت دوماً على حافة أن أغرم بميشيل.. لكن مساحة الهزل بيني وبينه واختلاف الطبائع الحاد بيننا لم يكونا ليسمحا بنشوء علاقة جادة متزنة.. ثم إنه يشفق عليّ لكوني عربية مسلمة! كيف أغرم برجل يشفق عليّ من هويتي؟!!

كان يكفيني أن أراقص ميشيل في سهرات العمل، وأن أسافر معه من مدينة إلى مدينة نستكشف القارة القديمة هذه معاً متعلقة بذراعه بلا حسابات كثيرة.. كان يكفيني الضحك بيننا، وكنت أقول لنفسي: دعي الغرام لأهله يا كعكته المفرحة!

قبّلت خد ميشيل بامتنان، ثم اعتليت سلم الحافلة التي كانت تقودها امرأة شرسة الملامح.. تخيّلت ما يكون الحال لو سُمح للنساء في مصر أن يقدن أتوبيسات هيئة النقل العام، فارتسمت في مخيلتي رغماً عني صورة لامرأة مصرية بدينة ترتدي جلباباً أسود وتلف رأسها بمنديل مثلث صغير وقد "قمطته" فوق جبهتها تقود الحافلة وعلى ملامحها "ضيق خلق" من الزحام! وجدتني أبتسم للصورة رغم الثقل الذي أحسه.

جلست أتأمل الوجوه النظيفة والملابس المهندمة من النافذة حتى مرت الحافلة بنابروجادا، فرأيت طرف مسيرة ضخمة تنبعث من محيطها أصوات مرتفعة.. ما تكون هذه؟ فيم تظاهر عرب كوبنهاجن؟ لا بد أنه حصار غزة مجدداً.. كانت تخنقني أخبار الحصار الوافدة من

غزة، لكني كنت أتابع الأوضاع عن كثب لأطمئنَ على الأصدقاء في القطاع.

قررت أن أنضمَ للتظاهرة، علّي أجد بعدها ما أرد به على زوجة التمثال الأبنوسي الحزين! ربما أقول لها: يا سيدتي الغاضبة، نحن، المدافعين عن حقوق الإنسان، لا جدوى لوجودنا ولم يغير انتشار مكاتبنا ومنظماتنا من كآبة الواقع كثيراً رغم صدق بعضنا على الأقل في حمل القضية، لذا فقد شاركت اليوم في تظاهرة مناهضة للحصار على غزة على سبيل الاعتذار عن عدم نفعي! فهل يشفع لي هذا في نظرك ولو قليلاً؟!

قفزت من مكاني كي ألحق بالتظاهرة طالبة من السائقة الشرسة أن توقف الحافلة، وتنزلني، فنظرت لي في المرآة نظرة متحدية ثم نظرت أمامها، و قالت شيئاً ما بالدنماركية..

- "عذرا" بالإنجليزية.. أو "رجاء" بالعربية!

- قلت لك ليس بوسعي إلا أن ألتزم بالمحطات.. لن أتوقف على جانب الطريق لمجرد أنك تريدين ذلك!

أيتها الشقراء شرسة الوجه أنت.. لا تضيعي فرصتي الأخيرة في التكفير عن سيئة وجودي! أنزليني بالله..

ما أن غادرت الحافلة واقتربت من الجيتو العربي حتى شممت رائحته المميزة.. مزيج من البخور والعطارة والشاورمة والعرق!

لم يكن يغطي عادة على رائحة الجيتو المميزة هذي إلا مزيج الأصوات

المعتادة: مباراة تأتي من تلفاز مجهول، ضحكات رجولية تشي بمسامرة فاحشة، دردشة حريمي مرحة، مجادلة عالية بين اثنين وصوت طلقات نار!

أما اليوم فلا صوت يعلو فوق صوت التظاهرة.

ألقيت بنفسي وسط المتظاهرين.. حشرت جسدي وسط الأجساد الساخنة المعرقة في حماسة حاجّ يلقي بنفسه بين الطائفين مكفّراً عن خطاياه القديمة الأصيلة!

حاولت أن أنصت لما يردد المتظاهرون لألتقط أي شعار أردده بحماسة معهم، فلم أميّز لفظتي غزة ولا حصار فيما قيل.. فقط ميزت لفظاً أو اثنين بالعربية وعدداً من الأسماء المميزة: "حسين".. "كربلاء" "يا زينب" "الدم"!

لماذا يصفع هؤلاء الشباب صدورهم بكل هذا الألم؟!

***

لا ينقضي ذكر الحسين بثغرهم
وعلى امتداد الدهر يوقد كاللهب
وكأن لا أكل الزمان على دم
كدم الحسين بكربلاء ولا شرب
أولم يحنّ كف البكاء فما عسى
يبدي ويجدي والحسين قد انتحب

من شعر نزار قباني

عاشوراء.. اليوم هو عاشوراء!

توقفت لوهلة أحاول أن أستوعب المشهد: مسيرة لا أبلغ نهاياتها بعيني، كفيلة ولا شكَ بشلّ العاصمة الدنماركية بالكامل، نساء كثيرات يرتدين السواد ويلطمن خدودهن باكيات، رجال بلحى في أعمار مختلفة، شبابهم بصدور عارية يصفعونها مع رقابهم بقوة، وأطفالهم يرتدون أغطية رأس محيك عليها اسم الإمام علي -رضي الله عنه- بالخيوط المذهبة ويمشون ممسكين بجلابيب آبائهم أو جدودهم، بينما تكفّل المسنون بتنظيم سير التظاهرة وتوزيع المأكولات على المشاركين على جانبي الطريق.

أليس غريبا أن أرى طقساً شيعياً رأي العين للمرة الأولى في حياتي في كوبنهاجن، أنا ابنة القاهرة المدينة السنية شيعية الهوى؟!

امتننت في داخلي لهذه المدينة أن اتسعت لهذا الطقس المؤذي للحواس، ولهذا العدد الهائل من المشاركين فيه دون تضييق، حتى إن سيارات المواطنين الدنماركيين والحافلات العامة أجبرت على الانتظار على مفارق الطرق في المنطقة المحيطة بالمسيرة لحين انتهائها.

لطم خدود وشق جيوب وصفع رقاب.. هذا طقس يناسبني اليوم أكثر من سواه!!

وجدت نفسي ألقي بنفسي وسط المسيرة.. لطمت خدي وصدري مراراً حتى اندمجت تماماً.. وجدتني أصرخ.. أبكي.. ألطم أقوى.. الرقبة..

الصدر.. الوجه.. أقوى.. أقوى.. الألم يخدّر ما عداه من أحاسيس ويسلمني إلى صفاء غريب..

سامحيني سيدتي زوجة السجين الأبنوسي المنسحق.. لم أكن أعلم أنك ظننت أن العالم مكان أفضل لأننا هنالك!

***

فاطمة زهرا

كان عليّ أن أجد المركز الإسلامي في هذه المدينة.. أحتاج لأن أصلّي في جماعة.. لأن أحسّ أن لون بشرتي منسجم مع ما حولي.. لأن عيني ليستا العينين العسليتين الوحيدتين في العالم!

بحثت على الخريطة عن المركز الإسلامي، فتأكد لي أني لا أجيد قراءة الخرائط!

عليّ إذن أن أجرّب الطريقة المصرية في كوبنهاجن:

Excuse me...how can I get to the Islamic center??

لم تخذلني الطريقة المصرية أبداً!

ما جدوى الخرائط في العالم إذن، طالما أن هناك الطريقة المصرية؟!

في المركز الإسلامي نساء ترتدين ملابس سوداء فضفاضة.. عراقيات وإيرانيات كثيرات ها هناك.. أما السودانيات فترتدين ملابس مزركشة زاهية الألوان.. نساء كثيرات كُنّ في المركز.. نساء وأطفال..

كان في المسجد إمام يلقّن الحضور درساً في.... في شيء لم أفهمه!

كان إمام المسجد يلعن السلطات الدنماركية التي تقصي أبناء المسلمين خارج أماكن العمل، وتتهمهم بالضلوع في مخططات إرهابية

والتورط في عمليات تهريب مخدرات واتجار بالبشر!

لهجة الإمام أخبرت عن مصريته التي لم تكن لتخطئها أذني.. فكرت ساعتها أن هذا الإمام الذي يلعن السلطات الدنماركية من على منبره في الدنمارك، لو كان بقي في مصر كان غالباً ليكون الآن معلقاً في قبو ما تحت مبنى أمن الدولة بلاظوغلي أو مدينة نصر، يُستنطق عارياً مغطى العينين عن تنظيم هو على الأرجح لا يعلم عنه شيئاً!

أما الآن، وهو في أرض تتيح له هامشاً من الحرية لم يكن ليعرف بوجوده أصلاً في وطنه، فإنه يقف على المنبر ناقداً لاعناً لاذعاً كليث جسور.

أعتقد أني كنت أحب أن أسمع شيئاً شاعرياً في زهو المسلمين بمآثرهم الحضارية على العالم القديم، أو شيئاً صوفياً مفرداته الوجد والشوق، لكن ما كان مقدراً لي أن أسمع أكثر مما سمعت..

بينما أجلس في مصلى السيدات بالمركز محبطة، أقلب عيني في وجوه النساء اللاتي بَدَوْن أكثر انكساراً بعد الدرس، أتتني فتاة لا تتجاوز السنوات العشر من العمر أعطتني بوصلة وسجادة صلاة، وقالت شيئاً ما بالدنماركية، ثم ابتسمت ورحلت راكضة خجلى.. كم أحببتها.. تصوّرتها وهي توليني ظهرها وتجري كأنما لها جناحان شفافان ستطير بهما بعيداً إلى حيث وادي الملائكة الصغار!

ابتسمت لي امرأة بجواري، وقد أدركت أني لا أفهم الدنماركية وقالت:

- المركز يوزّع بوصلات وسجادات صلاة على ذوي الوجوه غير المألوفة.. ستساعدك البوصلة على معرفة اتجاه القبلة.

كانت هذه "أنيتا"، أو "فاطمة زهرا" بعدما أسلمت.. وبرغم أني لم أكن أحتاج بوصلة كي أصلي، فقد كنت أصلي في أي مكان على أية قبلة وفي أي وقت، ولم أكن أحتاج سجادة صلاة لأني كنت أصلي على أي فرش أرضي أو بلا فرش أرضي على الإطلاق، إلا أنني امتننت للبوصلة المعدنية الصغيرة والسجادة المزركشة التين كانتا سببا في تعارفي بـ"أنيتا"

كانت "فاطمة زهرا" أربعينية دنماركية بيضاء بعينين خضراوين وغطاء رأس، وبعض الألفاظ العربية الإسلامية التي تنطقها بلكنة اسكندنافية تجعلك تعيد اكتشاف الألفاظ معها...

كنت أحب الطريقة التي تنظر بها إلى السماء وتنطق لفظ الجلالة منتهياً بهاء مملوءة بالهواء، وكأنما تملأ الفضاء حولها ببعض من الذات العلية.

بعد أن أسلمت، بدأ أبواها الدنماركيان المستمسكان بإلحادهما ينظران لها كمعتوهة بحاجة إلى التصبّر عليها مع بعض الرعاية فإن لم تكن معتوهة. فما عساه قد يكون الداعي لاعتناقها الإسلام؟! ذلك الدين الغريب الوافد من الصحاري في الجنوب وهي السيدة الناضجة المحبوبة كثيرة الاطلاع والأسفار؟!

وبعد أن أسلمت، هجرت اسمها الأول "أنيتا" واختارت لنفسها اسم "فاطمة الزهراء" الذي كانت تنطقه "فاطمة زهرا"، وأصبح من حولها ينادونها "زهرا" اختصاراً.

حين سألت "زهرا" عن قصة إسلامها، ذكرت قصة لا تختلف كثيراً عن قصص الأوروبيين حين يعتنقون الإسلام فوراء إسلامهم دوماً قصة ارتحال إلى شمال إفريقيا، أو قصة حب أو زواج مع طرف مسلم، أو أزمة وجودية لا يقيل منها إلا صديق صوفي، أو أزمة شديدة لا تنفرج إلا بمساندة عربي مسلم..

هكذا القصة دوماً..

ولـ"زهرا" قصة لا تختلف كثيراً عن تلك القصص.. لعل الاختلاف الأساسي يكمن في اللغة التي تستخدمها زهرا.. في لغة جسدها المتحمسة.. في انفعالها الأصيل في كل مرة تعيد فيها الحكاية وكأنما هي تحكيها للمرة الأولى.. في هائها المملوءة بالهواء في نهاية لفظ الجلالة.

"صحوت فجر يوم، وكنت في إحدى قرى المغرب النائية، وسمعت صوت الأذان.. لم يكن صوت الأذان.. بل كان صوت الله.. كان يُحدّثني الله أنا دون غيري.. وتحرك شيء ما في داخلي منذ سمعت صوته"..

"زهرا" تخطّت بقوة شخصيتها ومرحها الإحساس بكونها "معتوهة"، وهو الإحساس الذي حاول المحيطون بها من غير المتدينين تسريبه إليها، مستعينة عليهم بالالتحام مع المسلمات الشرق أوسطيات المقيمات في الدنمارك.

مهاجرات كُنَ أو لاجئات أو مقيمات بصفة مؤقتة، ولكل واحدة حكايتها..

كانت زهرا تجلس بثقة على أية طاولة تُدعى إليها، وإلى أية جماعة تدعوها.. تجلس مرحة منتفخة الصدر غير عابئة بالأسئلة الفضولية حول غطاء رأسها وقصة إسلامها وعلاقتها بمجتمع النساء المهاجرات واللاجئات، والتي كانت تنطوي. تلك الأسئلة، في بعض الأحيان على أحكام سابقة وإدانات ثقافية وفكرية ضمنية.

كانت في جلساتها مع الأصدقاء ترفض بثقة هادئة أي مشروب كحولي يقدم لها، هي التي كانت، كما حكت لي، تفرط في تناول الكحوليات ولم تكن تخال نفسها تمتنع عنها.

"اشربوا أنتم ما يحلو لكم.. أنا اخترت وأدفع ثمن اختياري دون ندم.. عصير توت بري من فضلك".

أعلنت زهرا الحرب على العنصرية والإقصاء الاجتماعي الذي ذاقت مرارته في بلادها بالموسيقى، فكونت فرقة موسيقية عمادها المهاجرات واللاجئات وطالبات اللجوء الشرق أوسطيات.

من هنا تنبع فرادة زهرا ومشروعها: إذ قررت أن تنجز مهمتها دون كثير ثرثرة وجدالات فكرية متقعرة ووجع قلب.. تلك اللغة التي تسحر الأسماع والألباب دون استئذان ولا سؤال عن جنسية ولا عقيدة ولا مذهب.. فقط تأخذ السامع وكفى.

أسمت زهرا فرقتها الصغيرة المكونة من مجموعة من الشرق أوسطيات المهاجرات وطالبات اللجوء Missing Voices أو "أصوات غائبة" وكأنما تلفت الناس في بلادها إلى أنه يفتقد هذه الأصوات وإن لم يدرك!

وكأنما، في الوقت ذاته، تقول للنساء المهاجرات الشاعرات بالإقصاء: مكانكن شاغر.. فاسمعن أصواتكن.. اندمجن يا حلوات!

***

زهرا..

حين كانت تدعو لي زهرا كانت تقول: "ألا نظر الله عليك وابتسم" كم كنت أحب دعوتها تلك التي كانت تغير مزاجي وتثير فرحاً ما طفولياً في داخلي.

***

حضرت بدهشة وفرحة عدداً من عروض الأصوات الغائبة في الدنمارك والنرويج، فهرني حشد النسوة الذي نجحت تلك السيدة الجميلة في حشده، وتقديمه إلى المجتمع الأوروبي بفخر وحب أجبرا الجمهور على الاحتفاء به.

هناك التقيت "ميزجين".. الشابة التركية المقعدة في كرسي ذي عجلات متحركة، والتي عوّضتها الحياة بمنحها حنجرة ماسية وصوتاً ساحراً.. صوت يأخذك إلى غابات آسيا ثم يعود بك قبل أن يرتد إليك طرفك!

كانت تغني وتعزف على آلة وترية من الآلات الوترية الآسيوية التقليدية فيغيب عقلي مهرولاً وراء أذني إلى أماكن لم أزرها قبل أن أسمع "ميزجين"

تعاطفت كثيرا مع ميزجين.. لذا حين طلبت مني أن أختفي في كواليس أحد عروضها معتنية بصغيرتها ذات الشهور الثمانية لم أتردد، لأكتشف ليلتها أني أفشل جليسة أطفال محتملة في الوجود بأسره!

لم تكف الصغيرة عن البكاء لحظة مذ حملتها، ولم أدر ما أفعل كي أقنعها بأن تكفّ عن البكاء على الأقل حتى تنهي أمها فقرتها الآسرة!

كنت أسير بالرضيعة مهرولة في الكواليس متوسلة إليها كي تهدأ.. أغني.. أقفز بها في الهواء.. آتي بكل الحركات البهلوانية الحمقاء بملامح وجهي ثم أعود فأغني.. أُسمعها الأذان في أذنها.. أهرول بها في الكواليس من جديد.. أغني.. ثم أغني.. ثم أقفز مرة أخرى في الهواء.. لكن الرضيعة لم تكف عن البكاء.. أعيتني الحيل ولم تكفّ لحظة عن البكاء العالي المتواصل الذي يملأ الكيان بالحزن والفزع معاً!

"عذراً جمهوري العزيز.. أعلم أنكم جئتم ودفعتم ثمن تذاكركم مقابل أن تستمتعوا بعزفي وغنائي.. لكن صغيرتي تبكي في الكواليس.. لا أقوى على العزف والغناء بينما تبكي صغيرتي في الكواليس.. حين أسمعها تبكي أحسّ أن يداً عملاقة تعتصر قلبي.. فهلا عذرتموني قليلاً؟".

قالتها ميزجين ثم دفعت عجلات كرسيّها إلى حيث الكواليس أتوسل أنا للصغيرة كي تكف عن البكاء، والتقطتها مني بيديْ أمّ عليمة وضمت الصغيرة لصدرها، فسكنت الصغيرة من فورها!

صحبتها ميزجين على كرسيها ذي العجلات إلى خشبة المسرح لتستكمل فقرتها والصغيرة في حضنها، بينما أنا أبدو كخلفية باهتة، وأنا أعتذر متلعثمة بمزيج غير مفهوم من العربية والإنجليزية:

"معلش.. I couldn't make it!"

لم ترد ميزجين سوى بابتسامة شفوقة جعلتني أحسّ أني أسوأ جليسة أطفال في هذا العالم!

لم يثلج صدري ساعتها إلا قدر تعاطف الجمهور مع المرأة المقعدة في كرسيها المتحرك، وقد احتضنت طفلتها يلفّهما غناء الأم بسحر خفي كأنهما، تحت أضواء المسرح، يشكلان معاً مشهداً آسراً ساحراً أخاذاً للأذان والعيون في بلورة سحرية!

(تصفيق حاد)

***

قاسم

لماذا لم يُغرم بي "قاسم"؟!

هو قال إنه لم يضحك مع امرأة في عمره كما ضحك معي..

هو قال إنه لم تشاطره امرأة في الدنيا نوبات كآبته واضطراب نفسه وارتباك عقله كما فعلت..

هو قال إنه لم يحكِ عن طفولته لامرأة كما حكى لي..

هو قال إنه يحب تقاطيع وجهي أكثر حين أرفع شعري لأعلى!

هو قال إن لي شفتين تنغلقان كوردة حيية شهية، وما أن تنفتحا حتى تكشفا عن مفاجأة: أسناني المصفوفة كحبات الرمان اللامعة..

هو قال إنه لا أجمل من عيني حين يحتضنهما الكحل، ولا أتعس منه حين يراهما غير مكتحلتين..

هو قال إن لكل أتباع دين إلهاً يؤمنون به، أما هو فيؤمن بي وحدي دون سواي..

هو قال إني أشبه تماثيل الحضارات القديمة التي ترقد في كسل معتمرة أكاليل الزهور فوق رؤوسها..

هو قال إني "ربة" خصّت نفسها في نشوء خليقتها بأحلى ابتسامة، ثم وزّعت ما تبقى لديها من ابتسامات عادية على باقي النساء!

وهو قال إنه لا يملك ترف أن يقع في غرامي!

كان "قاسم" أبهى قليلاً من البدر..

وكان مشروع مجرم.. لص وسيم.. وعازف ناي رقيق.. وشيوعي متعصب.. وصوفي حائر.. وسكير لا أحلى من مؤانسته حين يعاقر الخمور!

***

يا ليلُ الصبُ متى غده ... أقيام الساعة موعده

***

اليوم هو الأحد.. نهاية الأسبوع، حيث الكسل والطعام الدافئ ومطالعة الصحف المصرية، وصبّ اللعنات على جامعة الدول العربية، ومكاتبة الأصدقاء في الوطن، ثم متابعة طبيبي النفسي بالبريد الإلكتروني!

دعتني فاطمة زهرا لقضاء اليوم معها ومع ابنتها المراهقة الهيبي المزعجة التي تثبت أقراطاً كثيرة في وجهها ولسانها وتضع طلاء أظافر أسود اللون، على ظهر باخرة من تلك البواخر الفاخرة التي تقدم وجبات سمك استثنائية الجودة، فاعتذرت.. لم أكن في مزاج يسمح لي باحتمال المراهقات اللاتي يضعن طلاء أظافر أسود اللون!

بعدها بقليل طرقت بابي "هدى"

"هدى".. زميلة سُكنى المبيت.

تونسية إعصارية المزاج تثرثر بمزيج من اللهجتين التونسية والمصرية مع كثير من الفرنسية والإنجليزية، تحكي لك طرفة ظريفة وتقهقه ثم حكاية مؤسفة مبكية وتبكي، ثم تدعوك مستبشرة فرحة لمرافقتها في رحلة شوبنج مثيرة في محل باريسي الأناقة، واعدة بشراء الحلوى المثلجة، كل هذا بينما تدخّن سيجارتين على الواقف!

كم تعلقت بحضور هدى!

كانت مرحة الجنون، تدخل غرفتي في المبيت، فتحيلها إلى سيرك لمدة عشرين دقيقة، ثم تغادر تاركة إياي مبعثرة الوجدان، مشتتة الأفكار.

"يلعن بو زينك.. قديش مزيانة يا ربي! ما أحلاها ما أحلاها وخيتي.. تبارك الله عليكي"

تقولها في مرح كلما رأتني، كأنما تراني للمرة الأولى! كان حديثها هذا يذكّرني بتدليل الجدات اللاتي لا ترين في حفيداتهن إلا الزين، فأترحم متأثرة على جدتيَ. حينها تدرك هدى فجأة أني ما زلت في فراشي، وأن بي كسلاً لا يتناسب مع إعصارية مزاجها، فتسبني بالتونسية وهي تجذبني من تحت الغطاء:

- "جد أصل والديكي.. لتوا راقدة؟!".

كانت في داخل أعاصير هدى وخلف زينتها الثقيلة المفتعلة، تكمن فتاة شديدة التدين، تخشى الله وتتودد إليه بكثرة الذكر وطول الصلاة.. كانت أمها توقد الشموع و تنذر النذور لأحد الأولياء الصالحين في بلدة في تونس يُدعى الشيخ "الصاحبي"، وحين كانت أمها الطيبة حبلى

بهدى، جاءها الشيخ "الصاحبي" في منامها وقال لها: "هي هدى.. في أحشائك هدى.. ستكون بهجة أيامك المقبلة". فجاءت هدى باسمها هذا الذي منحها إياه الولي الصالح، والذي غدت هدى مرتبطة به أيما ارتباط، فهو باب الرضا وباب التوبة وباب التبرك وباب التماس الطلبات.. الشيخ "الصاحبي" لدى هدى هو الوسيلة إلى الله.

"وربنا قال اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة.. قال هكا ولا ما قالش؟"

كعادتها اقتحمت هدى غرفتي في ذاك الأحد بإعصارها، فأخافت طائر الكسل فوق رأسي! عرضت عليَ أن نتبضّع سوياً في أحد المحلات باريسية الأناقة، وأن تبتاع لي الحلوى المثلجة، فرفضت قائلة إن لي مزاجاً بيتياً اليوم.

"سأخوض مغامرة الطهي.. وحدي.. دون أن تكون أمي في الجوار!".

حاولت هدى إغرائي بمشروب الشوكولا الساخن، وبفطيرة التفاح الطازجة، وبخوض مغامرة في ملهى ليلي يتناولون فيه المخدرات، لكني تمسكت بمزاج "لك يا سيدتي" الذي كنت فيه..

- بل سأخوض مغامرة الطهي!

بدا لي أن مزاجي المفرط في البيتوتية هذا قد أحبط أعاصير هدى، فقررت أن تغادرني لتبحث عن شريك آخر لمسيرة التبضع الباريسي والمثلجات، لكن قبل أن تخرج وقفت على الباب ملوحة بالسيجارة بين إصبعيها:

- هل تعرفت على الوافد الجديد؟

- أي وافد؟

- قاسم.. التركي.

لا والله لم يحدث لي الشرف بعدُ!

- أولى بك أن تستحمي وتتعطري.. فالفتى في وسامة أبطال الروايات! لا داعي إطلاقا أن تدعيه يراك في مظهر جِوال الغسيل هذا!

- لن تثنيني وسامة "قاسمك" التركي عن تنفيذ خطتي المطبخية اليوم! كما يحلو لك أيتها النكدة.. تشاو.

خرجت هدى وهي تترنم بصوت عال رنان بأغنيتها الفرنسية المفضلة: Je suis malade (أنا مريضة) غير عابئة بهتك حالة الكسل العامة التي تخيّم على طرقات المبيت، حتى إني توقعت أن يفتح أحدهم ناعساً باب غرفته ليضربها بعصا مقشة كي تكف عن صراخها الأوبرالي المنغم، فيعاود نومه في هدوء!

قمت من فراشي وتناولت في كسل كتاباً ضخماً من وسط كتبي نصف المحترقة عنوانه "في فن الطهي: أكثر من ألف وجبة شهية على مائدتك".. حسنا.. تكفينا اليوم وجبة واحدة من الألف!

أستحم؟ لا لن أستحم هذا الصباح.. ولن أصفف شعري اليوم.. ولن أتعطّر نكاية في "هدى" و"قاسمها التركي" سوف أخرج على العالم ببقايا نعاسي وكسلي.. لا يستحق العالم اليوم هندامي!

***

بعد أن أصبحت مصر ولاية عثمانية، توالت محاولات تتريكها، وصدرت فرمانات كثيرة تحرّم على المصريين ارتداء أزياء المماليك، وتفرض زي العثمانيين بدلاً منها. وكانت المرأة المصرية تحت الحكم العثماني تلبس ما يُعرف باسم "التريزة" وتلبس معه "الحبرة" وهي قطعة من القماش مربعة من الحرير الأسود تثبت حول الرأس وتنسدل لتغطي الرأس والوجه وبقية الجسم من الخلف، بحيث لا يظهر منها سوى وجهها الذي يغطيه البرقع.

من دراسة بعنوان "العنوان في مسالك النسوان" للدكتورة أمال المصري.

***

بدأت أطهو!

لم أكن يوماً فتاة طهي الأطباق الشهية وتطريز المفارش حالمة النقوش، حتى إن الخالات والعمات كن يعيرن أمّي بخيبتي هذه.. فتاة لا تصول ولا تجول في المطبخ هي فتاة منقوصة الأنوثة ولا شك.. فالمطبخ مملكة مُبَهرَة متبَلة فائحة الروائح متعددة الألوان.. المطبخ ساحة تواصل خفي من نوع خاص تنقل منه المرأة الماهرة إحساسها بالكون كله على أطباق ملونة. أما أنا، فمطبخي لا تفوح منه عادة إلا رائحة القهوة والمخبوزات الجاهزة!

الطهي فنّ دُشّنت أصوله وتوارثته نساء مكتملات الأنوثة.. والصبر! وأنا لست من هؤلاء..

كنت بينما أستخرج الوصفات الغرائبية التي يعجّ بها كتاب فن الطهي العملاق هذا، أسترجع تفاصيل رواية فرنسية سمعتها من هدى، وكانت المخبولة متشربة اللغة والثقافة الفرنسيتين حد الثمالة.. رواية عن قصة حب وفتاة تطهو، تتسرّب أحاسيسها عبر أطباقها لكل الحضور على المائدة، فما أن يبدأوا في تذوق طعام طهته وهي تبكي لفراق حبيبها حتى ينفجروا في موجات بكاء غير مسببة، ويضحكون إذا ما تناولوا ما صنعته وهي سعيدة لرؤية الحبيب أو ملامسته!

سأبتسم إذن بينما أطهو، كي يبتسم كل من يتذوق هذا الطبق الشهي الذي أعده.. أعدت قراءة اسم الطبق كي أجيب من يسألني: "ماذا تصنعين؟!" إنه حساء الأفوكادو الربيعي مع قطع الخبز المحمص ومكعبات الخضار المحلاة بالكراميل!

يا خفيّ الألطاف نجّنا مما نخاف!

أذكر الآن الحاج "نبيل"، وكان رجلاً عباداً صوفي المزاج، لطالما لقيته يوزع الخبز الأبيض الطازج شهي الرائحة على الجموع الرائحة والغادية أمام مسجد الإمام الحسين بالقاهرة، إذ استوقفني ذات مرة بابتسامة وقطعة خبز، وقال: إن صنع الطعام وتناوله في جماعة هو أكثر ما يودد النفوس إلى بعضها البعض.. هكذا علمه شيخه الصوفي الذي لم يرد التحدث عنه معي: لأنه "سر من أسرار القلب" كما قال..

"عشان كده يا بنتي أهل الله بيحرصوا على الأكل الجماعي.. في أي مولد.. أي ليلة ذكر.. يطبخوا جماعة وياكلوا جماعة.. تتلاشى الفروق

بينهم.. كلهم حانيين رؤوسهم على طبلية واحدة بياكلوا نفس الأكل.. بنهاية الوجبة لازم تلاقي النفوس صفيت والكبر انكسر والوجوه بشّت.. كُلِي وادعيلنا يا بنتي"

كان الحاج نبيل يطوف موزعاً خبزه الشهي رفقة رجل مسن متأخر فكرياً، يقيم في رحاب الإمام الحسين يعيش على الصدقات، ويسير في الطرقات هائماً في جلبابه المتسخ فيخشاه الصغار وأنا معهم!

"بتاع ربنا" هكذا كانوا يلقّبونه في إشارة مهذبة إلى كونه متأخراً عقلياً، ولم يكن أحد يعلم له اسماً ولا سكناً ولا أهلاً.

كان الحاج "نبيل" يتولى الرجل ذا الإعاقة العقلية، وما أن يظهر الحاج "نبيل" حتى تجد صاحبنا هذا يهشّ ويبشّ كالأطفال، ويجري مقبلاً على الحاج متمسحاً في جلبابه النظيف، ومتشمماً بتلقائية عطره باحثاً في جيوبه عن الطوفي واللبان الذي كان يوزعه الحاج على الأطفال والمجاذيب..

أذكر أني ذات مرة وبينما أتناول نصيبي من خبز الشحاذين والمجاذيب من يدي الحاج "نبيل"، اقترب مني "بتاع ربنا"، وكان بي خوف طفولي منه، وظلّ يقترب ويقترب من وجهي ورقبتي ويتشممني مراراً، والحاج "نبيل" يقول بلطف: "ما تخافيش.. ماتخافيش منه" فجأة ضحك "بتاع ربنا" كأنما أرضته رائحتي، ثم خطف قطعة كبيرة من الخبز في يدي وأكلها راضياً مرضياً مصدراً صوتاً جذلاً كصوت طفل فرح، فقال الحاج "نبيل" إن "بتاع ربنا" يحبني، وإلا لما كان قاسمني خبزي!

استرجعت المشهد وابتسمت بينما أضيف البازلاء والجزر للحساء "العجيب" الذي أعده، وأقول لنفسي بصوت مسموع "الله الله"

ألا يمكنك أن تتحدثي إلى نفسك سراً حتى لا يحسبك الناس مخبولة؟؟

أتاني الصوت من خلف كتفي بينما أنا منهكمة في صنع حسائي الأخضر، فأجفلت ونظرت خلفي فطالعت وجهه.. وجه قاسم.. قاسم.. كانت المجنونة التونسية هدى على حق.. هو وسيم كأبطال الروايات.. ينقصه فقط فرس ودرع حديدي على صدره!

كان أبهى من أن أتصرف بتلقائية قبالة عينيه، فظللت مشدوهة صامتة هكذا لثوانٍ طالت بما يكفي لأن يعاود الحديث إليّ كي يوقظني من نوبة البلاهة التي اجتاحتني:

لا بأس! أنا كذلك أحادث نفسي بصوت مسموع طوال الوقت.. أنت لست وحدك يا آنستي.. بل نحن كثر! هناك في الخارج مجتمع كامل من المخبولين الذين يحادثون أنفسهم، وهم يبحثون عن بعضهم البعض كي يبدأوا في تبادل خبراتهم.. وأنا أولهم: قاسم.. من تركيا.

- آه.. قاسم!

- وأنت؟

- أنا؟

- نعم.. اسمك؟

آه أنا.. تقصد اسمي؟ أنا مصرية.. أنا من مصر.. أم إنك تسأل عن اسمي؟!!

وكان حسائي البشع هو أول ما دعوت قاسم لتناوله معي! والحقيقة أنه يحلو لي أن أعتقد أن بشاعة حسائي كانت من الأشياء التي وطّدت علاقتي بقاسم سريعاً.. فالناس أقرب رحمى وأكثر تضامناً في الشدائد!

***

مرت أيام لم أكن أرى فيها قاسم إلا أنيقاً مبتسماً لطيفاً، خلاب الطلة متماسك الأفكار، وواسع المعرفة في فروع الإنسانيات المختلفة: شِعر، دين، ميثولوجيا، تاريخ، سياسة، حضارة، موسيقى وسنيما.. بدا لي رحباً باهراً يخطف اللب ويسحر النفس.. كان لأيام يحكي لي حتى يتنفّس الصبح فأقوم من جلستنا ثملة بصوته وسحر حكاياته من الشرق والغرب.. وكنت أحسّ أني أنتقم لشهرزاد إذ ألعب دور المحكي لها في القصة!

كان العالم كله كأنما انطوى في قاسم الذي لم يكن يناديني إلا "جوزاليم" أي "جميلتي" بالتركية.. كان يعرف بعض ألعاب الحواة الطريفة، وكانت لديه خلفية جيدة في فن التداوي بالأعشاب فيعرف العشبة الملائمة للألم هذا أو ذاك، وكان يمارس اليوجا، ويرشد من حوله للأوضاع الملائمة لطبائع أجسامهم وأمزجتهم، وكانت أنفاسه تخرج من ثقوب الناي بألحان حزينة رائعة.

وكان يعرف كيف يُسعد من يرافقه ويفاجئه. فلم تكن هداياه كأي هدايا، ولا مفاجآته كباقي المفاجآت.

ذات مرة طرق باب غرفتي وقال: "أغمضي عينيك وهاتي يدك واتبعيني" تبعته دون كثير جدل، فقد كنت أعلم أن شيئاً ما حلواً ينتظرني معه.. صحبني إلى غرفته، أغلق الباب.. أجلسني ثم..

"الله أكبر الله أكبر.. أشهد ألا إله إلا الله"

أذان! هذا أذان حلوٌ لم أسمع في حلاه منذ سنوات.. منذ وطئت بقدمي هذا البلد البعيد.. أذان؟ هنا؟ في هذه الأرض المبيضة بالثلج؟ أذان في كوبنهاجن؟

"حي على الصلاااة.. حي على الفلاااح"

فتحت عيني.. فكان قاسم يؤذن! كان يعتلي كرسيّ مكتبه ويؤذّن للصلاة.. قاسم الذي لا يؤمن بوجود الله يؤذّن.. لأجل خاطري.

كان يعلم أني أفتقد الأذان، إذ قلت له إني لم أسمع أذاناً حياً منذ سنوات، وقد عشت عمري كله أسمعه خمس مرات كل يوم، فأخذ أياماً يحفظ الأذان ويتدرب على نغمته ليؤذن على مسامعي بصوت فاجأتني حلاوته.. من أين أتى بكل هذا البهاء في خلقته؟ في صورته.. في صوته.. في حديثه.. من أين؟!

من أين أتيتني يا قاسم؟! من أي أرض وبأي سحر؟!

أبكتني حلاوة صوته وارتباك أسئلتي وخجلي من كونه فعل هذا لأجلي أنا، فأنهى الأذان وضمني طويلاً حتى هدأت خلاياي على صدره..

حين علم أني أحب الشوكولاتة، حضر دروساً في فن صناعة الشوكولاتة كي يحضرها لي خصيصاً في مطبخ المبيت!

جاءني ذات صباح يجري في طرقات المبيت كلاعب كرة قدم أحرز هدفاً لتوه:

"أيتها المصرية.. يا عروس النيل.. أنا الآن مجاز لأن أصنع الشوكولاتة.. انظري ماذا ابتعت لخاطر عينيك اللوزيتين: حبوب الكاكاو، وأدوات لخلطها وطهوها في المنزل.. سمّي عليّ أي نوع تشتهين من الشوكولاتة: شوكولاتة بالحليب، شوكولاتة باللوز، شوكولاتة حارة، شوكولاتة بالبرتقال، شوكولاتة بالفاكهة أو القرفة.. فقط تمني يا أميرتي"

جلست قبالته في مطبخ المبيت، بينما يعدّ الشوكولاتة كما تعلمها وهو يروي بصوت ساحر:

- "جوزاليم، دعيني أحكي لك الحكاية من أولها.. وصلت حبوب الكاكاو أول ما وصلت من أمريكا الوسطى إلى راهبات الكنائس الكاثوليكية ونساء البلاط الملكي الأوروبيات في القرون الوسطى، وكن يحتسين مشروبها سراً، وفي دوائر محدودة جداً معتبرات مشروب الشوكولاتة مشروباً ذا قداسة؛ لتأثيره المدهش على أجسادهن وأمزجتهن.. أخذت الشوكولاتة زمناً طويلاً حبيسة الجلسات الخاصة وحكراً على نساء البلاط قبل أن يتسرب سرها وسحرها إلى العامة.. ومنذ متى تؤتمن النساء على سر مهما يكن؟!".

قالها ونظر لي غامزاً مبتسماً فابتسمت في بلاهة! كنت آكل الشوكولاتة التي أعدّها لي وأنصت لحكاياته الوافدة من أراضٍ قصية كالمأخوذة.. هذه الشوكولاتة صنعت لي أنا بالذات.. وحدي.. دون سواي.. ولن تتذوّقها امرأة غيري؛ لأنها لم تُصنع لامرأة غيري..

هكذا كانت مفاجآت قاسم وهداياه.. أشياء كان ينحتها بيديه في لحظة بعينها ليشاركني فيها لا أحد.. لتبقى معلقة في فراغات الذاكرة لا تنازعها هدايا مهما غلت وتميزت.

سألته ذات ليلة بينما ننصت للموسيقى اليونانية، وكان يهواها:

- ما تفعل لو اكتشفت أنّي من بنات الجن؟

صمت لحظة وبدا عليه شيء صادق من الذعر، ثم مد إلى وجهي يداً مرتعشة كأنما يتأكد من وجودي المادي وقال بتوسل جاد:

- بالله لا تكوني جِنّية!

- هل تخافني حينئذ؟

- بل إن أخوف ما في الجن أنهم يختفون.. لا تختفي.. بالله لا تختفي.

في اليوم التالي لحوارنا هذا اختفى هو!

اختفى قاسم..

لم يعد يفتح باب غرفته ولا يردّ على هاتف غرفته ولا هاتفه الشخصي ولا بريده الإلكتروني..

لم يعد يطرق باب غرفتي، ولا يتجول في طرقات المبيت باحثاً عني..

لم يعد يدندن في المطبخ بينما يعدّ لي القهوة، ولم يعد يرن جرس هاتف غرفتي ليوقظني في قلب الليل سائلاً متسائلاً إن كنت أومن بوجود كائنات خضراء في الفضاء؟!

اختفى كأن لم يكن هناك قاسم أبداً..

***

فقال العفريت: اسمع حكايتي يا صياد.. اعلم أني من الجن المارقين، وقد عصيت سليمان بن داود فأرسل لي وزيره آصف، ابن برخيا فأتى بي مكرهًا وقادني إليه وأنا ذليل، وأوقفني بين يديه. فلما رآني سليمان استعاذ مني وعرض علي الإيمان والدخول تحت طاعته، فأبيت، فطلب هذا القمقم وحبسني فيه وختم عليّ بالرصاص، وطبعه بالاسم الأعظم، وأمر الجن فاحتملوني وألقوني في وسط البحر، فأقمت مائة عام وقلت في قلبي كل من خلّصني أغْنيته إلى الأبد، فمرت المائة عام ولم يخلصني أحد، ودخلت مائة أخرى فقلت كل من خلّصني فتحت له كنوز الأرض، فلم يخلّصني أحد، فمرت علي أربعمائة عام أخرى فقلت كل من خلّصني أقضي له ثلاث حاجات فلم يخلّصني أحد، فغضبت غضبًا شديدًا وقلت في نفسي كل من خلّصني في هذه الساعة قتلته ومنّيته كيف يموت، وها أنك قد خلّصتني ومنّيتك كيف تموت.

من كتاب الف ليلة وليلة

***

بينما لم أكن أرى قاسم، كانت تمر الأيام بطيئة بطيئة كأنما شُدَت صباحاتها ومساءاتها إلى طود عظيم، فكفّت عن التعاقب..

حتى إدارة المبيت لم تعرف عنه شيئاً. لوهلة شككت في أنه ما كان هناك قاسم من الأصل. حتى إني كررت سؤالي عنه لهدى حتى ظنت أني فقدت عقلي.

يعني هناك إنسان اسمه قاسم كان معنا هاهنا؟ يعني أنتِ رأيتِه وسمعتِه وتجزمين بوجوده؟

- ماذا أصابك يا مخبولة أنت؟! بالطبع كان هناك قاسم.. أوه لالاه! كم تمنّيت لو يقبّل شفتي! والله كنت أكتبها في الـ CV!

اختلّ توازني باختفاء قاسم، واستبدّت بي الوحشة. ولازمني صداع لا تردّه المسكنات.. هل أحببته؟ هل أدمنته؟ هل أتسلّى به عن وحدتي؟ متى ملك أمري هذا التركي؟!

احتجبت في غرفتي أفتّش في نفسي عما اعتراني، بعد أن وضعني غياب قاسم في حال لم يتقبّله غروري.. كنت إذ أفتقده أفتقد معه أموات عائلتي من المقربين حتى إن أطياف الموتى الأحباء عادت تزاورني كما كانت تفعل في طفولتي، فعدت أسمع أصوات جدتي وخالتي -رحمهما الله- في غرفة المبيت..

أيام خمسة مرت كنت فيها في حال "برزخي". لا أنا مع الأحياء ولا أنا مع الأموات.. لا أنا أنشغل عن قاسم ولا أنا أنكسر لافتقاده.

مع انتصاف ليلة اليوم الخامس منذ اختفائه جلست متكورة على نفسي في غرفتي أمام النافذة أتأمل بياض الثلج على المباني والأرصفة.. قاسية هذه البلاد وباردة.. حتى أهلها، سليلو محاربي الفايكنج، باردون في برودة جليدها.. حين "أكبر" سأنجب بنتاً ولن أسمح لها بأن ترحل وحدها إلى أرض الاسكندناف!

لم لا أعود إلى مصر؟ ماذا أفعل في هذا الصقيع وحدي أنا؟ أعمل؟ أدرس؟ أجوب العالم؟ "الكل باطل وقبض الريح"!

لو كنت في القاهرة، كنت أزور مسجد السلطان "المؤيد"، وأنذر نذراً كي يعود لي قاسم!

تقول الحكاية إن السلطان "المؤيد" قد حبس في خزانة شمال مصر، وكان مملوكاً للسلطان البرقوق آنذاك، وقد حدث أن قاسى المؤيد في سجنه ذات ليلة من البق والبراغيث، فنذر لله تعالى إن تيسر له ملك مصر أن يجعل هذه البقعة التي كان بها السجن مسجداً لله -عز وجل- ومدرسة لأهل العلم، وقد أوفى بنذره وأقام هذه التحفة المعمارية في القاهرة القديمة..

وأنا.. أنا كلما أردت شيئاً واعتزمت أن أنذر لأجله نذراً لله، كنت أتوجه لمسجد السلطان المؤيد، أستلهم ضيقه في زنزانته ورجاءه وأطلب وأنذر، عالمة أن الله سيجيب وأني سأوفي..

ذهبت الأفكار بي وجاءت حتى كدت أغرق في دموع ساخنة لم أجد لها راداً، ثم فجأة كان أن سمعت طرقات خافتة على باب الغرفة. حين

فتحت كان هو.. قاسم.. لكنه لم يكن ذات "القاسم" كان "قاسماً" آخر.. لم يكن "القاسم" ذا الوجه البدري والابتسامة الرائقة والحركات المنسابة الواثقة.. بل كان "قاسماً" آخر يقف محني الظهر، بعينين محمرتين وشعر مهوش وملابس مبعثرة وفي ملامحه استجداء.. ذكّرتني حالته بحال اللاجئين غير الشرعيين الذين كان يُعثر عليهم على الحدود بين الدول، فأهرع وزملائي حاملين كاميرات التصوير ومسجلات الصوت إلى المخيمات الحدودية لنفضح أوضاعهم اللا إنسانية!

استأذن في الدخول، فأفسحت له الطريق للداخل صامتة.. لم تكن طرقة المبيت مضاءة بما يكفي لأتبين زجاجة الخمر في يده.. وضعها على المائدة في غرفتي، وجلس صامتاً يحتسي الويسكي ويدخّن.. شارداً كئيباً منشغلاً ثقيلاً.. جررت كرسياً إلى جواره وجلست ساكنة محترمة صمته الثقيل في انتظار أن يقول أي شيء يفسر به اختفاء "القاسم" الآخر، ويعرفني على هذا "القاسم" الكئيب الذي يجالسني الآن.. لم يقل شيئاً.. فقط ظلّ يحتسي الويسكي ويدخّن بلا توقف، ودون أن ينظر ناحيتي حتى كدت أشك في وجودي ذاته.. مددت يدي أزيح زجاجة الويسكي كأنما أطلب منه صامتة أن يكف عن الشرب، فضرب ذراعي بحركة عنيفة وسريعة احتشدت لها الدموع في عيني، وتغضّن وجهي كما لو كنت كبرت عمراً على عمري.

- "إياك أن تفعلي يا امرأة.. هل تفهمين؟"

قالها صارخاً، فلزمت الصمت باكية..

ظللنا على هذه الصورة زمناً لم أعِه حتى ثقلت رأسه على رقبته فتركها تهوي على المائدة بين ذراعيه المرخيين أمامه. لم أدرِ ما أفعل، بل لم أدرِ ما يجب عليّ أن أحس به إزاءه في هذا الحال.. لم أرَ سكران في حياتي قبلاً، ناهيك عن أن يكون غائب العقل بين يدي أنا!

اقتربت منه بحذر طفلة تستكشف كلب الجيران العجوز النائم أمام مدخل بيتها. كان صوت أنفاسه عالياً متحشرجاً..

كإنسان يحتضر..

رأيت جدتي حين كانت تحتضر.. كنت بعدُ طفلة لم أر الموت ولم أشمم رائحته قبلها، وكان الوقت فجراً، ووحدي كنت ساهرة أرقب البيوت الناعسة من شرفة الردهة حين سمعت صوت حشرجتها المخيف.. حشرجة طويلة فيها معاناة ورغبة في الخلاص. هرولت إلى غرفتها، وكانت -رحمها الله- فقدت القدرة على الكلام والحركة منذ سنوات، واحتضنتها أسألها بلهفة: "ما بك يا جدة؟ ما بك؟ قولي لي ما تريدين.. تشربين؟ آتيك بالماء؟" لكنها لم تكن ترد إلا بتلك الحشرجات الطويلة المتوحشة، وقد أحكمت قبضتها بصدرية جلبابي المليء بالوردات البمبى الصغيرة. لم أفزع.. شيء ما يمتّ لفطرة طفولتي أنبأني أنه الموت، فركعت إلى جانب أذنها اليمنى بهدوء وتلوت الشهادتين: "لا إله إلا الله.. قولي يا جدة.. محمد رسول الله.. ارحلي في سلام يا حبيبتي".. كانت حشرجتها آخر ما سمعت من الجدة، وكان عليّ بعدها أن أوقظ أمي كي تتخذ التدابير التي يتخذها "الكبار" حين تموت الجدات!

وقفت أنصت لحشرجة قاسم مسترجعة حشرجات جدتي قبل أن يأتيني حزم لم أدر مصدره. فأوقفته مسندة جسده على رقبتي وكتفي وحملته إلى فراشي، حيث ألقيته وخلعت خفيه عن قدميه ودثرته.

فتح قاسم عينيه وقال شيئاً ما بالتركية. ثم غاب عن الوعي دقائق. ثم عاد يقول بالإنجليزية وبلسان ثقيل غير مستقيم: "احكي لي حكاية.. حكاية يكون فيها أناس سعداء.. وحيوانات.. حيوانات ناطقة.. أنا أحب الحيوانات الناطقة!"

قالها وغاب عن الوعي دقائق عاد بعدها يلحّ من أجل حكاية حيواناته الناطقة، فقلت:

- حسن.. أعرف حكاية فيها حيوان غير ناطق.. لكنه مدمّر.

- لكني لا أحب الحيوانات المدمرة.

- هذا ما لديّ إن كان يروق لك!

- احكي احكي بالله.

بدأت أحكي له حكاية سعد الله ونوس "الفيل يا ملك الزمان"، حيث دمر فيل السلطان البلاد وقتل العباد، أحكي فيكرر بعض كلماتي منفعلاً من حين لآخر بصورة مبالغ فيها: "أووووه.. فيل السلطان؟! نعم نعم.. أنا أحب أفيال السلاطين!" يغلق عينيه فأحسبه نام، وأصمت فيفتح عيناً واحدة في شقاوة ويطالبني ضاحكاً ببقية حكايته، ثم يغيب ثانية وهكذا حتى غاب تماماً مع شروق الشمس وهو يتمتم: "هل ثاروا

على فيل ملك الزمان؟ الفيل.. يا له من فيل.. مدمر هو الفيل.. أنا لا أحب الأفيال المدمرة يا جميلتي"

جلست وحدي على كرسي جوار الفراش أتأمل هذا الذي أتى من بلاده البعيدة ليلقاني هنا.. وليحتلّ فراشي!

مددت أطراف أصابعي أرفع شعره عن جبهته فبدا لي ساعتها أجمل مخلوق شكّلته يدا القدرة العلية!

ذكّرني وجهه وهو نائم بوجه السيد المسيح كما يرسمونه في أيقونات الكنائس مصلوباً مستسلماً لقدره مواجهاً البشرية من على صليبه بشبح ابتسامة لا يراها إلا من يفتّش عنها.

في القاهرة كنت أذهب إلى دير القديس سمعان الخراز؛ لأطالع أيقونات السيد المسيح الضخمة المعلقة هنالك والمنحوتة في قلب الجبل، مفتشة عن تلك البسمة الخفية.. سمعان الخراز.. القديس الذي كان يعمل في دباغة الجلود وإصلاح الأحذية والذي اقتلع عينه بمخرازه؛ لأنها وقعت على شيء من مفاتن امرأة فاشتهاها..

هل أشتهي قاسم؟ هل تستحق عيني مخراز سمعان الخراز؟! وأين أنا من القديسين على أي حال؟

سأحكي لقاسم حكاية القديس سمعان غداً.. سيحبّها.. لكنه قال إنه يحب حكايات الحيوانات الناطقة! آه! هناك حكاية هدهد سليمان ونملته.. وهناك كليلة ودمنة.. عليّ أن أعيد قراءة كليلة ودمنة.. غداً..

غداً أجدها وأعيد قراءتها.. غداً لي موعد مع القرود النبيهة والثعالب الحكيمة إذن!

ظللت هكذا أضع خططي السردية حتى غلبني النعاس، وأنا جالسة أتأمل ملامحه الدقيقة في نومه.

ولم أكن أدري ليلتها أن ليالي طويلة كثيرة كليلتي هذي تنتظرني.

***

ثم إن ملك الغربان قال لذلك الغراب: كيف صبرت على صحبة البوم ولا صبر للأخيار على صحبة الأشرار؟ فقال الغراب: إنما ما قلته أيها الملك لكذلك، لكن العاقل إذا أتاه الأمر الفظيع العظيم الذي يخاف عدم تحمله الجائحة على نفسه وقومه لم يجزع من شدة الصبر عليه، لما يرجو من أن يعقبه صبره حسن العاقبة وكثير الخير. فلم يجد لذلك ألماً، ولم تكره نفسه الخضوع لمن هو دونه حتى يبلغ حاجته فيغتبط بخاتمة أمره وعاقبة صبره.

من كتاب كليلة ودمنة

***

كان حال قاسم في اليوم التالي مزرياً.. صحا من النوم بعينين متورمتين وصداع يدقّ كل عظمة في جمجمته وقيء مستمر، ولا يدري أين هو ولا ما أتى به إلى غرفتي، ولا يذكر شيئاً عن الليلة الفائتة.

كان خجلاً من حاله منكسراً يحاول أن يعتذر ولا لغة تسعفه، ويحاول أن يختبئ لكنه كان خائفاً من الاختلاء بنفسه.

قضينا اليوم نتكلّف التواصل المرح، متجنبين الحديث عن اختفائه وعن إفراطه في الشراب وتبدّل حاله، والحقيقة أن فرحتي بعودته كانت تطغى على كل الأشياء، فاختلقت أكذوبة ملائمة لرفيق ضحكي ميشيل اعتذرت بها عن الذهاب للعمل يومها، وقمت أطهو لقاسم حساء الخضراوات ومخبوز الينسون المحلى، وأرتب غرفته، وأعدّ له القهوة وأقرأ له الصحف والشعر، وأحكي له الحكايات الخرافية.. كنت فرحة برفقته كما لو كنت "أم موسى" وقد ردّ لها الله وليدها!

قُرُب انتصاف الليل دثرته في فراشه، وقبّلت جبهته ونصحته ضاحكة أن يؤمن بوجود الله، وأن يجرّب مناجاته في السحر، فابتسم ابتسامة شاحبة، وطلب مني أن أتلو عليه شيئاً من القرآن. اندهشت لطلبه وقد عرفته مناظراً شرساً للمتدينين من المسلمين والمسيحيين الذين يفنّد بثبات وسعة اطلاع معتقداتهم، متهماً إياهم بالجهل والانصياع للخرافة، مزهوّاً بكونه متحرراً من الخضوع كمثلهم لقوة مبهمة محجوبة عن الحواس، و لا يكاد يتقبلها العقل ما أن يستنير.

- ليس قبل أن تتوسّل إليّ قليلاً!

- أتوسّل إليك.

- أكثر!

- بربك اتلي عليّ شيئاً من قرآنك.

قمت فتوضأت وأمسكت بالمصحف وأخذت أتلو بصوت هادئ:

﴿ طه. مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. ﴾

كان قاسم مغمض العينين عاقداً ذراعيه ومنصتاً في خشوع عجيب..

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾..

فتح قاسم عينيه، وأرسل لي نظرة خائفة، ثم أحنى رأساً مثقلة..

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾..

فجأة انخرط قاسم في موجة انتحاب موجعة، حتى أغرقت دموعه وجنتيه وسالت على رقبته وصدره.. قمت فضممت رأسه إلى صدري وأنا أردد "الله.. الله.. الله"، فما لبث أن بدأ يردد معي "الله.. الله.. الله" ظللنا نردد لفظ الجلالة سوياً بنغم رتيب وصوت خفيض حتى راح قاسم على صدري في نوم ثقيل.

لم أكن أعرف هذا "القاسم" الذي يبكي لسماع القرآن متلواً.. الذي ينام على ذكر الله، والذي يسمح لعقله بأن يغيب في كؤوس الخمر والذي لا يبارح غرفته أياماً.. لكني في الأيام التالية تعرفت على هذا "القاسم" الجديد.. فارقني "القاسم" الساحر المزهوّ بوسامته ومعارفه.. وحده قاسم المنكسر المنعزل المثقل بقي في صحبتي معظم الوقت.. كان يعرف أنه مدين لي بتفسير، لكنه كان يخشى الحديث وكنت أخشى السؤال، فمرت أيام أبتلع فيها تساؤلاتي وأنشغل فقط بأن أنتشله من كآبته، حتى كانت تلك الليلة التي جاءني فيها ممسكاً شريطي أقراص دواء ملونة.

"اسمعيني يا مصرية أنت..

وأخبرني بسره الصغير..

قاسم.. فارسي الوسيم، كان مصاباً بداء نفسي له مسببات جينية يسري في عائلته يُعرف بـ"الاضطراب الوجداني ثنائي القطب"..

كان داؤه يجعل من نفسه أرجوحة بين حالين: الهوس والاكتئاب.. بين الابتهاج الشديد حيث ترقص الأفلاك على موسيقى كونية خفية، وبين الاكتئاب حيث تنتحب الحياة وتبتلع الثقوب السوداء مذاق الوجود ذاته.. كان الحالان يتناوبان على قاسم، فيجعلان منه رجلين في رجل، خاصة إذا تهاون في تناول أقراصه المثبتة للمزاج والمضادة للاكتئاب..

شقيقة قاسم الصغرى، "إليف"، كانت مصابة بالداء ذاته الذي ظلّ يؤرجحها بين النهم للحياة والعزوف الكامل عنها حتى ألقت بنفسها من شرفة منزلهم في أنقرة في يوم خريفي غائم.. أمام عيني قاسم المذهولتين ألقت شقيقته الحسناء المدللة نفسها من الشرفة، ملوّحة له بيدها وداعاً بعد أن كتبت اسمه بالقلم الحبر على كفّ يدها.

أبوه، الرجل العسكري الصارم ذو البنيان الجسدي المتين، كان أشد بأساً من صغاره في مواجهة الداء الذي كان يتلاعب بعقله هو الآخر، فلم يستسلم إلا بمقدار الإدمان على الكحوليات!

هكذا ظلّ الرجل حتى فُصِل من الخدمة العسكرية على إثر إدمانه لينسحق تماماً أمام إدمانه، إلى أن عطبت معدته، واضطر الأطباء إلى استئصال ثلثيها ليعيش الرجل بثلث معدة، وإدمان قديم مكبوت على

الكحوليات وإدمان مستحدث على تدخين الحشيش ومغازلة نساء الجيران!

أما الأم، فكان يكفيها سرطان القولون وإفراطها في التدخين غير عابئة بتحذيرات الأطباء..

هذه كانت عائلة "القاسم" الثاني.. الذي لم أتعرّف إليه إلا مؤخراً..

ليلة أن جاءني قاسم بأقراصه، قال إنه "لعنة" على كل امرأة يقترب منها، وأنه عاهد نفسه منذ سنوات على ألا يربط مصير امرأة بمصيره..

"أنت لا تعرفينني يا جميلتي.. سأكون لعنة على حياتك إن اقتربت منك أكثر"

حكى ليلتها أشياء كثيرة لم أكن أعرفها عن حياته في بلاده.. كان قاسم من عائلة فقيرة، شاب نزق احترف السرقة نكاية في مجتمعه الذي كان يراه مجحفاً، وقد كدّس ثرواته في دوائر بعينها والناس دونها كادحون غارقون في الجوع والعري.

كان قاسم يسرق أغنياء الحي الذي يسكنه في أنقرة؛ ليعيد توزيع "الثروة" بين فقرائه، وكان يسرق الكتب من محال بيع الكتب ويقرؤها ثم يتبرع بها للمكتبات العامة المجانية؛ لأنه كان يؤمن بأن "الأغنياء أبناء الفجاب يحتكرون المعرفة برفع ثمن الكتب لنظلّ نحن الفقراء عبيداً لهم.. نلهث وراء سد رمقنا فنشغل الماكينات التي تطبع كتبهم لكنّا لا نعرف كيف نقرؤها.. نصنع أبواق الجرامافونات لينصتوا هم

للموسيقى الكلاسيكية، بينما نكتفي نحن بمعاشرة نسائنا على سبيل ملء فراغات الوقت والروح"

كان حانقاً على الكل، ناقماً على الكل. يود لو ينسف جسده في الكل!

كان يعمل في الصباح صحفياً مترجماً. وفي المساء كان ينظف أرضيات البارات، متمنياً أن يحصل على بقشيش جيد يسمح له بأن يشتري رواية جديدة وعلبة بيرة ووردة قرمزية يقضي معها ليلته.

"كم كنت أسعد حين أحصل على بقشيش جيد.. أنت لم تجرّبي هذا الإحساس، جوزاليم.. حين تعودين إلى القاهرة، وتجلسين في أحد المقاهي الراقية على النيل، بالله عليك لا تنسي الفتى المنكسر الذي سيأتيك بالمشروبات.. أعطيه بقشيشاً.. بقشيشاً سخياً.. أعطيه البقشيش واذكريني وابتسمي.. البقشيش السخي يغيّر وجه الحياة كلها لدى أمثالي.. يخلق أملاً في ليلة أحلى.. أو على الأقل في ليلة أقل طولاً وسواداً"

كان قاسم منخرطاً في العمل السياسي في بلاده، بالتحديد في حزب شيوعي محظور! وكان ورفقاؤه لا يجيدون إلا نشاطين: الإضراب عن الطعام حتى الموت، أو اغتيال الشخصيات السياسية التي لا تروقهم!

وقاسم لم تطاوعه يده على القتل:

"أنا رجل كانت تقول له أمه في طفولته إن العصافير على الشجر تصوم رمضان مع المؤمنين الذين يحبون الله ويخافونه.. فكيف يتأتى لرجل مثلي أن يقتل؟!".

ولم يكن أبوه ليدعه يموت جوعاً، إذ كان الرجل يربط ابنه بحبال الليف القاسية ويدسّ الطعام في فمه دساً!

"لم أنجح يوماً في أن أهرب من بيت أبي.. في كل مرة كان يعرف مخبئي ويسوقني إلى بيته مربوطاً كالخنزير. ويربطني أياماً في أقرب قطعة أثاث منزلي!"

كان قاسم مزيجاً مؤرقاً من المكونات والذكريات والأزمات..

كان تعيساً بقدر وسامته وأكثر..

وكان قراري بأن أقف إلى جانبه وأصاحبه بقدر ما يسمح قدرانا، واحداً من أكثر قرارات حياتي إنهاكاً.

قرأت كثيراً عن داء قاسم هذا، وعرفت أن الأمر جدي، وأن شبح الانتحار يلازم الفتى منتظراً أقرب موجة اكتئاب حتى ينقضّ عليه.

ومنذ تلك الليلة قضيت شهوراً طويلة لا أدري عددها مصلوبة بين القاسمين.. لا أنا قادرة على مجاراة "القاسم" المبتهج في مَدِّ ابتهاجه، ولا أنا قادرة على احتواء ذاك الحزين المثقل في جَزْرِ كآبته..

قضيت ليالي كثيرة حتى مطلع فجرها أبحث عن فتى وسيم سكران ملقى على أرصفة كوبنهاجن حتى أجده فأحمله وأعيده إلى فراشه وأبقى أمرّضه أياماً حتى يتعافى.. أو أجده نصف سكران في ملهى يرقص وقد تحلّقت حوله الفتيات العاريات يغازلنه أو تلعقنه لعقاً، فأجذبه من ملابسه غاضبة حد الصراخ في وجهه ووجوه العاريات فاقعات التبرج.

أياما أخرى قضيتها أحتسي القهوة المغلية إلى جوار فراشه والمطر يضرب زجاج غرفته بعنف ينتفض له جسدي حتى أظل يقظة خشية أن يغلبني النوم ذات ليلة سوداء فأصحو لأجد قاسمي الجميل وقد ذبح معصمه أو ألقى بنفسه من نافذة غرفته!

قضيت أياماً لا أفعل إلا أن أنصت لعزفه الحزين الباكي على الناي لساعات طويلة.. وأياماً أتلو على مسامعه القرآن حتى تنتابه نوبات الانتحاب الطويل التي ينام بعدها.. وأياماً أخرى أرتدي المرح ثوباً وأراقصه "سالسا" من أول الليل حتى الشروق!

كان قاسم دمثاً خجولاً حتى في أوقات سكره لم يكن أبداً ذا عينين وقحتين ولا ألفاظ بذيئة، وما شعرت يوماً أنه يهدد إحساسي بالأمان أو السكن..

وكان، "قاسمي" الوادع، لصاً رقيقاً يسرق الحليَ الثمينة من المحال الدنماركية الراقية، ويقدمها لي هدايا معترفاً بسرقاته متوسلاً إليّ أن أقبلها أولاً، ثم أن أدعو الله أن يغفر له سرقته ثانياً! فلم أكن أملك إلا أن أقبل هداياه متلفتة حولي خشية أن يباغتنا رجال الشرطة الدنماركية، ويلقوا بنا في "البوكس"

رويت لقاسم كل الروايات التي قرأتها والأفلام التي شاهدتها، وترجمت له من شعر أمل دنقل وبدر شاكر السياب ومحمد الماغوط وسعاد الصباح، وعلّمته حروف الهجاء العربية، وعشرات الكلمات العربية نطقاً وكتابة..

وعلّمني قاسم الحروف التركية، وذاكر لي تاريخ الدولة العثمانية وأصول النظرية الشيوعية، وقرأ معي أهم ما كتب في أدبيات السجون، موضوع رسالته لنيل درجة الماجيستير.

السجن كان فزّاعة قاسم، الذي لم يكن يخشى الموت ولا الجحيم ولا الله ذاته! فقط السجن.. أن يسلبوه حريته كان أخوف ما يخاف قاسم في الحياة بأسرها، فكتب رسالته عن السجون في تركيا، تحديداً السجون المخصصة للمعتقلين السياسيين والتي تعرف بـ F-Type Jail، وهي سجون عزل انفرادي محكم تودي بعقول السجناء في فترات زمنية قصيرة، قبل أن يودعوا سجوناً عادية وقد فقدوا عقولهم للأبد.

مرّت أيامي مع قاسم مشحونة مرهقة، ولا تمنّي بمستقبل أكثر استقراراً، حتى كان الفراق المحتوم.

***

في تلك العصرية الحزينة كنت نائمة. رأيت في منامي الخالة وقد صحبت "ألطاف" معها إلى حيث لا أدري، وأنا واقفة أصرخ: "لم يا خالة؟ "ألطاف" لديه طفلتان.. دعيه معهما.. بالله لا تأخذيه"

صحوت من النوم فزعة فرأيت "ألطاف" يقف قرب باب غرفتي، وكأنما يودّعني! أدركت ساعتها أن الرجل قد فارق الحياة، وأني سأبدأ من اليوم مشاهدته برفقة أموات عائلتي.

هاتفت زوجته لأتثبت من الأمر، فردّت عليّ المرأة بصوت باك، وأكدت لي وفاته بسكتة قلبية قبل يومين.

غادرت الغرفة جرياً إلى غرفة قاسم؛ لأتلهى بقربه عن هذا الحزن، فوجدت في ملامحه ابتسامة غريبة.

قال:

- ما بك يا جميلتي؟

- ما بك أنت؟

- أنا.. أنا لا أستطيع أن أكمل الحياة بدونك.

كانت منحته الدراسية قد توقفت؛ لعدم انتظامه في حضور المحاضرات، ولم يعد لديه ما يكفيه للإقامة في كوبنهاجن، والأدهى من ذلك أن كان عليه أن يعود إلى أنقرة حيث تُحتضر أمه.

"تعالي معي إلى تركيا.. سنتزوج وننجب عشرة "قاسمين" كلهم يشبهونني.. سيكون قاسم منهم طبيباً، وقاسم آخر معلماً، وثالث صيدلانياً، والرابع راعي غنم.. كلّ في تخصص.. ستكون لنا قبيلة من أبنائنا أنا وأنت، ولن نحتاج إلى أحد.. تعالي معي!".

كنت أعرف أن قاسم هو آخر من يمكن لامرأة أن تنجب معه قبيلة! قاسم أبعد ما يكون عن حياة الأسرة، فما بالي بحياة القبيلة؟!

عرفت أن هذه هي النهاية، وأن قدرينا قد بدآ في التوازي بعد التقاطع، فطلبت منه مبتسمة أن يكون وداعنا لائقاً بالأشياء الكثيرة الحلوة التي جمعتنا، واعدة إياه بأن أفكر جديا في أمر القبيلة، شريطة أن يأتيني بعد عام، وقد كف عن تناول الخمور، وانتظم في تناول أقراص دوائه، وانخرط في أي عمل خلاف السرقة!

اتفقنا أن نقضي ليلتنا الأخيرة سوياً متسكعين في شوارع كوبنهاجن.. ليلتها تدثّر كل منا بأثقل ثيابه وأدفئها، وأخذ نايه وأخذت علبة سجائري، وودّع برفقتي شوارع كوبنهاجن ومحالها وكنائسها وباراتها ومواقف حافلاتها وغجرها الشحاذين، حتى أشرقت علينا شمس اليوم التالي.. اليوم الذي لم أرَ قاسم فيه ولا بعده ثانية.

***

أرسلْ لي قرميدة حمراء من سطوحنا

وخصلة من شعر أمي

مع أقراط أختي الصغيرة

وأرسلْ لي نقوداً يا أبي لأشتري محبرة

وفتاة ألهث في حضنها كالطفل

محمد الماغوط

إنستينا

لم يكن أمامي خيار بعد رحيل قاسم.. غدا المبيت مكاناً موحشاً مفخخاً بالذكريات والمشاهد المعلقة في فراغات طرقاته وغرفاته، فقررت المغادرة لأعود فأدور من جديد في سواقي البحث عن سكن في كوبنهاجن.

لست أراني أبتعد كثيراً عن نابروجادا على أي حال.. فقد غدا نابروجادا وطناً صغيراً مختلقاً لي في الغربة.

لقد أدمنت نابروجادا!

أدمنت التسكع في الحي والتربص بذوي اللكنات العربية المختلفة وحديث العنصرية بين البيض والملونين المنثور على كل ناصية..

أدمنت خطوات المغتربين المثقلة حين يجرجرون أقدامهم حتى تكاد تحفر الطريق حفراً..

أدمنت الشاورمة التركي والفلافل الفلسطيني والحمصية اللبناني، وقد تنافسوا على شهيتي في دكاكين نابروجادا الصغيرة.

احتضنت هدى مودّعة إياها وواعدة بتعدد اللقاءات ما دمت في هذه المدينة الرمادية، ثم حملت حقائبي الثقيلة، وانتقلت لمشاركة "إنستينا" سكنها قرب إحدى بحيرات نابروجادا الصناعية..

"إنستينا"

إنستينا زميلة عمل رقيقة القلب، قوية الحضور تعرف كيف تجمع حولها أناساً ما كانوا؛ لاختلاف طبائعهم وألوانهم وأمزجتهم، ليجتمعوا بغيرها.

كانت إنستينا شابة دنماركية طيبة لامعة في عملها تطير من بلد لبلد طوال الوقت؛ كي تلقي المحاضرات، وتعلّم الناس مما عُلّمت في القانون والعلوم الإنسانية.

وكانت إنستينا عملاقة!

كانت إنستينا أضخم حجماً من أية امرأة قد أكون رأيتها في أي مكان.. لا! بل إنها كانت أضخم من أي رجل رأيته أبداً!

لم تكن إنستينا بدينة.. بل عملاقة ممشوقة، لها جسد منحوتة أجزاؤه بمقاييس متناسبة مع بعضها البعض بلا ترهلات ولا زيادات غير مرغوبة، فكانت تبدو في النهاية كامرأة جميلة مكبرة عدداً من المرات!

كان من الممكن لإنستينا، إذا ما تم إعادة تخليقها، أن تكون عدداً من النساء الضئيلات اللطيفات ذوات الشعر البني الناعم والعيون الخضراء والأسنان المصفوفة.. لكن إنستينا كانت كلاً واحداً ضخماً ثقيل الخطوات، يحتل من الوجود فراغاً أكبر من المألوف في عالم

النساء.. كانت امرأة تنحني عند عتبة كل باب كي تستطيع أن تمر، وتتكوّر على نفسها عند دخولها سيارات الأجرة، وتستوقف عيون ركاب الحافلات في كل مرة تصعد إلى إحداها فلا تدري كيف تتوارى بهذا الجسد الضخم.

وفي الحفلات والتجمعات المسائية التي تستلزم الأناقة كانت إنستينا ترتدي أثواباً باهرة كأثواب العرائس التقليدية التي تلهو بها الفتيات الصغيرات في الريف أو في الأحياء الشعبية في مصر، مكشوفة الصدر منفوشة الذيل بألوان فاقعة، وإن كانت مقاسات طولها وعرضها وقطر الصدر والوسط والأرداف مضاعفة أضعافاً كثيرة! فتأخذ العيون من كل النساء وتجذب الالتفات عمن عداها وتبهر أنفاس الحضور أينما حلت وهبّت عطورها الفائحة في الهواء.

في الصور الجماعية كانت إنستينا تقف كخلفية وراء الجميع، تقف هادئة مبتسمة عالمة بأن رأسها والكتفين على الأرجح لن يظهرا في الكادر! لقد اعتادت مسألة "بتر الرأس والأكتاف" هذي منذ زمن ولا بأس..

ولم يكن مستغرباً أن تجد دوماً في حقيبة إنستينا أو على مكتبها رواية "العملاقة" لذلك الكاتب السويسري الذي لا أعرف اسمه، والتي هي سردية على لسان امرأة عملاقة ورثت عملقتها لابنتها فعاش ثلاثتهن حياة عاطفية وجنسية مرتبكة مزرية وإن كانت صاخبة، كن فيها

مثيرات للفضول إزاء أجسادهن أكثر مما أثرن الرغبة في تلك الأجساد الضخمة المتينة!

بدا لي أن إنستينا كانت تتسلى بروايتها المفضلة تلك عن فرادة حجمها التي أسلمتها هي الأخرى إلى حياة عاطفية تعيسة كانت فيها تحس أنها "مسخ" من تلك المسوخ التي كانوا ينصبون لها Freaks Show في أوروبا في القرن التاسع عشر، ليأتي الناس فيدفعوا ثمن مشاهدة تشوهاتهم البدنية وغرابة أحجامهم.

لذا فلدى إنستينا حكايات عاطفية كثيرة تنهيها جميعا بنفس العبارة:

"لم يُخلق بعدُ رجلٌ يناسبني يا صديقتي.. لم يُخلق بعد الرجل الذي يمكنه مصاحبة امرأة حسناء وناجحة و عملاقة في آن!"

والحقيقة أن إنستينا كانت تبدو لي كامرأة خارجة لتوها من حكاية خرافية لها طابع إيروتيكي.. ماردة طيبة حسناء تنقذ بطلاً وسيماً ما كادت تقهره وحوش ضارية لتمنحه حباً حسياً لا يتكرر إلا بين ذراعيها هي!

أو كمحاربة هائلة الحجم تنتمي لعصر من العصور الغابرة، لا ترتدي إلا أوراق الأشجار لتداري بها سوءتها، تاركة نهديها متحررين شامخين يتحدّيان كل ما هو ذكوري، تعلّق على ظهرها كيس سهام جلدي كبير يتناسب وقامتها وفي يدها قوس رماية ضخم، وعلى وجهها تعبير متحفز، أينما توجّهه تأتِ بنصر لقبيلتها!

أو كملكة بلا عرش؛ لأن كل العروش لا تناسب حجمها، وبلا شعب؛ لأن شعبها انسحق بالخطأ تحت قدميها العملاقتين!

لم يكن بملكي أن أحتضن إنستينا بقامتي القصيرة هذي، فكانت هي تحتضنني حين نلتقي وترفعني بمرح عن الأرض قليلاً، فأشعر أني عدت الطفلة الفرحة التي كانت تتعلق برقبة أبيها وتضحك!

قررتُ إنستينا أن هذه الحياة غير عادلة وقاسية على النساء أكثر من سواهن، وأن النساء هن الفئة الأجدر بالمناصرة على هذه الأرض، فوهبت جلّ وقتها للعمل النسائي العام.. تكتب عن النساء وتحاضر للنساء، وتنتج أفلاماً وثائقية موضوعها النساء، وتحضر مؤتمرات عن التحرش بالنساء وتهميش النساء، والنساء في العقائد الإبراهيمية، وحين ترى تظاهرة لأجل حقوق النساء فإنستينا ولا شك في مقدمتها إن لم تكن من منظميها.

وفي أيام الآحاد الهادئة كانت إنستينا تزور ملاجئ النساء من ضحايا العنف الأسري!

في ذاك الأحد، صحبتني إنستينا بسيارتها الكبيرة إلى ما خارج العاصمة كوبنهاجن، فاتجهنا شرقاً لخمس ساعات أو يزيد وسط الخَضار الممتد إلى حيث لا تحوطه العين، وحيث البيوت الريفية الصغيرة الملونة متناثرة هنا وهناك، فتشعرك بأنك تشاهد فيلم رسوم متحركة مفرحاً! لكن ملجأ المُعنَفات، وجهتنا، لم يكن جزءاً من فيلم الرسوم المتحركة المفرح ذاك.. بل كان، لكآبته، خليقاً بأن يكون جزءاً من الحياة.

***

عندما كانت الطبيعة في ذروة إخصابها

تتمخض كل يوم عن أطفال عمالقة

كنت أحب أنّ أعيش بالقرب من عملاقة شابة

كما تعيش قطة شهوانية عند قدمي ملكة

كنت أحب أن أرى جسمها يتفتّح مع تفتّح روحها

وينمو طليقاً بالغاً أقصى مداه

فاكشف من خلال الضباب السابح في عينيها

عن الشعلة الكئيبة التي يخفيها قلبها

شارل بودلير

***

هناك، في بلدة دنماركية صغيرة كانت النساء ضحايا العنف الأسري يختبئن من الحياة ذاتها. في بيت مكون من ثلاثة طوابق محاط بسور قرميدي تظلله أشجار قديمة كان الملجأ.. وفي ملاجئ المعنفات لا وجود للفوارق بين النساء، فالإهانة والزرقة حول العيون والتورمات والجروح السطحية والغائرة أشياء تعرف كيف توحد النساء هنا.

قد تختلف تفاصيل الحكايات، لكن الشقراوات والسمراوات، الفقيرات وسليلات العائلات الكبيرات، الأميات وأنصاف المتعلمات والمتعلمات، المهاجرات والمواطنات... كلهن تجتمعن هنا حول خطوط عريضة متشابهة، مدادها الألم النفسي وفقدان الإحساس بالأمان.

جدران الملجأ النسائي مزدحمة بنسخ كثيرة لذات الصورة الكبيرة: صورة امرأة شرقية المظهر وقد وضع كف رجولي على فمها كأنما ليكمّمها ويكتم حكايتها، وتحت الصورة شعار الملجأ وعدة كلمات بالدنماركية والإنجليزية يشجع بها الملجأ ضحايا العنف البدني أو الجنسي على اللجوء إلى فريق العمل بالملجأ، أو على الأقل التواصل مع القائمين عليه عبر الهاتف.

في ملجأ المعنفات التقينا "لونا"، الدنماركية البيضاء البدينة التي وقعت في غرام رجل عراقي، ظنّت أنه سيكون "سندباد" أيامها القادمة وأنه سيصحبها على بساط سحري إلى أرض الحكايات القديمة، حيث ترتدي أزياء فضفاضة مزركشة، فتبدو ببياضها وزرقة عينيها ذات حسن استثنائي يثير مكامن غيرته الشرقية ويلهب أعصاب العشق فيه. لكن الصورة على الحقيقة لم تمتلئ بكل أقواص قزح والألوان الوردية تلك! فالحقيقة أن الزوج العراقي ذا الشارب المشذب كان سكيراً غيوراً يهوى المغامرات النسائية، ويكفّر عن خطيئته بإلصاق تهمة الخيانة بزوجته، بل وتعنيفها على "خيانتها" تلك كلما أمكن!

تكتمت "لونا" أمر خيانة زوجها المتكررة وأمر ضربه إياها وتعنيفه لها المستمرين؛ حفاظاً على كبريائها أمام الآخرين، خاصة أولئك "الصديقات" اللاتي حذّرنها قبل الزواج من الاقتران برجل عربي؛ لأن "رجال العرب ليسوا كرجالنا على أي حال!".. فالنساء كما يعرفن

كيف يساندن ويحنون على بعضهن البعض، يعرفن أيضاً كيف ومتى يشمتن ويقسون.

كانت نهاية قدرتها على التكتم حين علمت أنه متزوج عرفياً من اثنتين أخريين، إحداهما عراقية وهي أم أبنائه، والثانية دنماركية من أصل جزائري فاتها قطار الزواج ولم تجد في دوائرها مسلماً يعرض الزواج سواه!

لم تعد لونا تخجل من أن تقصّ حكايتها من جديد، وأن تشير إلى الأماكن من جسدها التي طالتها يد الزوج "الغيور" بالضرب أو العضّ، فقد لاقت ما يجعل التكتم كبرياءً من قبيل الترف الذي لا يرجى!

كنت أسمع حكاية لونا وبرفقتي إنستينا التي كانت تنظر لي كل عدة دقائق نظرة منتصرة مغزاها: "ألم أقل لك؟ الحياة لا تكاد تتسع للنساء.. لا أجدر بالثورة من امرأة كسيرة الكبرياء"

لم تكن لونا وحدها في إعصار الندم الحلزوني، بل كانت معها "فالبونا"، الألبانية التي وقعت في غرام رجل دنماركي عبر الإنترنت، والتي لهثت وراء الانضمام إليه في بلاده المترفة، حيث الضمانات الاجتماعية وقوانين الأسرة المنحازة للمرأة، لتجد نفسها في نهاية المطاف زوجة لرجل مصاب بوسواس قهري يجعله يظنّ طيلة الوقت أن كل الأشياء يعلوها وسخ خفي، وأن كل النوافذ والأبواب تخفي وراءها مخاطر غير متوقعة، وأن كل الرحلات تنتهي بحوادث مروعة، وأن كل الرجال يتوددون إلى زوجته الحسناء!

حاولت "فالبونا" مساعدة زوجها للخروج من دوامات الوساوس قبل أن تلتهم حياتهما معا، لكنه استحال من زوج أشقر محب إلى وحش أشقر لا يتسامح أبداً مع اتهامه بالمَوسوس له!

وبين عشية وضحاها وجدت فالبونا الحسناء نفسها تعامل معاملة قطة حبسها سيدها خلف باب محكم الإغلاق، يلقى إليها باللقيمات والحليب كل عدة ساعات، ولا بأس بمضاجعة قطته الجميلة من حين إلى آخر، لاسيما إذا كان مخموراً، لكن القطة الحلوة لم يكن مسموحاً لها أبداً بأن ترى نور النهار، أو الجيران، أو الأطفال في الشوارع، أو أن تتّصل بأهلها في الوطن، وإذا ما علا صوتها احتجاجاً أو تأوهاً أو حتى توسلاً فإن الضرب الموجع والركل في البطن والصدر عقابها.. وفي النهاية وكأي "قطة" كان على فالبونا أن تهرب بغير رجعة، خاصة بعد أن اكتملت مأساتها بفقد جنينها ركلاً.

وكانت هناك كذلك "دميانة"، الفتاة القبطية ذات العينين الطيبتين، التي هاجرت مع حبيبها المصري ليتزوجا في الأرض البعيدة التي تعِدُ بفرصة سخية لحياة جديدة، فباعت "دميانة" كل ما ورثت من أبيها لتساعد حبيبها على تحقيق المشروع الحلم، وتوفير كل ما يتطلب السفر، وشراء بيت صغير مستقل في أرض الأحلام.. وفي الأرض البعيدة اكتشفت دميانة أن حبيبها وزوجها واقع في غرام رجل فرنسي مقيم في كوبنهاجن، وأنهما اتفقا أن يعيشا معاً في "عش الزوجية" الذي تكلّفت دميانة نفقات شرائه من ميراثها من أبيها!

ولم تكن إلا مسألة أيام حتى وجدت دميانة نفسها تواجه المصير الذي طالما خشيته أنا: الوحدة والصقيع في شوارع كوبنهاجن، وإن كانت قصة دميانة أكثر "تتبيلا" من خيالاتي الخائفة، فالمرأة الشابة ألقي بها إلى الصقيع مصدومة مذهولة قبل حتى أن تنظر ملياً لحبيبها الذي خانها مع رجل فرنسي!

إحدى غرف الملجأ كانت تضم عدة فتيات أفريقيات أبنوسيات البشرة، خضن رحلة الاسترقاق المعروفة، والتي لا يكاد يُدان فيها أحد.

رحلة بدأت بمحاولة للفرار غير الشرعي من بلادهن الحارة البعيدة كدن أن يمتن خلالها عشرات المرات، وفقدن خلالها من فقدن من الصاحبات والصديقات في عطش الصحاري أو برد الغابات أو أمواج البحر.. من قلب إفريقيا إلى شمالها يقطعن الصحاري في عربات مكشوفة أو حاويات مغلقة يعزّ فيها الهواء، لا يقيم أودهن إلا الخبز اليابس وبعض الماء لأيام ولياٍل، ثم عبر المتوسط في قارب متهالك يئنّ بحمولته في كل لحظة حتى يلفظهن على شاطئ جزيرة مالطة، حيث تعتقلهن السلطات وتودعهن مخيم المهاجرين غير الشرعيين.. قليلات فقط هن من تنجحن في الفرار من تلك المخيمات بالرشوة المالية أو الجنسية، لتستكمل الرحلة غير الشرعية للوصول للأرض الحلم، إيطاليا أو إنجلترا أو... فقط للطموحات، اسكندنافيا!

لكل منهن كانت حكاية منهكة طويلة كأفلام "بوليود" بدأت في بلادها المشمسة، ثم انتهت في الأرض الغائمة المثلجة هذي. الحكايات تتشابه..

أسرة فقيرة، تعليم رديء، طموح كبير، حبيب نذل، سمسار يتاجر في البشر بجشع، رحلة محفوفة بالمخاطر، مخيم هجرة، وفي بعض القصص يظهر قوّاد خسيس أو صاحب مصنع صغير سادي يعرف كيف يستغل عاملاته من الجائعات المنبوذات ليشبع ساديته!

بدا لي أن نساء الملجأ كن تحكين حكاياتهن التي ملأتها الكدمات والتحرشات والاستغلال تخففاً من وطأتها.

كنّ نساءً أضاف الإحساس بالانكسار إلى أعمارهن أعماراً. حديثهن جعل سماء الدنمارك الغائمة أكثر غيماً فوق رأسي، وبردها الذي يدقّ العظام أشد دقاً وأقسى على جلد وجهي ورقبتي من عشرات الشفرات المسنونة. فأحكمت وشاحي حول رقبتي، وأغلقت أزرار سترتي الصوفية وقضيت باقي اليوم بردانة صامتة.

أما إنستينا فكان وجهها مع كل حكاية يبدو أكثر ثقة من أنها في المكان الصحيح، تساعد من تحتجن إلى مساعدتها بحق، وأن بقاءها وحيدة بلا رجل هو أشبه بصمود شجرة سامقة أخيرة صامدة في غابة تأكل النيران يبسها وخضارها بلا هوادة!

مع كل حكاية كانت إنستينا تحسّ بالعرفان لقامتها العملاقة التي تجعل الرجال يهابون مغازلتها، ويعزفون عن الانخراط معها في علاقة جدية، حتى إنها كانت تؤمن أن الطبيعة الأم قد حمتها من الرجال بأن منحتها هذا الوجود المادي المبالغ في حجمه؛ لترهب به ذاك "الجنس الخسيس"!

لم تكن "الشهرزادات" التعيسات لتصمتن عن الكلام المباح، لكن آن أوان رحيلي بصحبة إنستينا غرباً صوب كوبنهاجن، وقد أنهكت كلانا، وإن كانت إنستينا ممتلئة بالرضاء عن نفسها؛ إذ تخوض معركتها الصحيحة في هذا "العالم الذكوري القبيح".

أما أنا، فما كنت راضية ولا مملوءة بنشوة الانتصار على الحياة كمثل إنستينا.. كنت مثقلة بما سمعت تائهة زائغة العقل عن نفسي ووجهتي لا أكاد أدري ما أنا، ولا لم أنا هنا، ولا ما أريد حقاً، ولا ما أرض معركتي إن كانت لي معركة..

أنا..

ماذا عني أنا؟

ماذا كان لي في بلادي وما ينتظرني؟ وما لي في بلادكم هذي وما يبقيني؟

ماذا عني أنا أيتها العملاقة الطيبة؟

***

"صدقيني، ومن منظور نسوي، فإن أنشطتنا اليومية التي نمارسها كنساء وأمهات هي عين الحقيقة وأصل الأشياء، ومحاولة تسفيهها والتقليل من شأنها في مقابل تعظيم انخراط النساء في الحياة العامة هي شأن أبوي ذكوري كما ينبغي للأبوية والذكورية أن تكونا!

مقولة للصديقة "فيمينيست"!

***

كنت أحتسي الكابتشينو على أريكة إنستينا المزينة بالأزهار الزرقاء حين قالت إنستينا:

"سنلعب لعبة.. أغمضي عينيك وأجيبي أسئلتي لكن دون تفكير.. لا تعطي لنفسك فرصة للبحث عن إجابة.. فقط اقذفي في وجهي ما يمليه وجدانك دون رتوش، وبجملة لا تزيد على كلمتين إلى ثلاث، وعلى ألا يزيد الزمن بين انتهاء سؤالي وبدء جوابك على ثانيتين"!

قلت:

"اسألي"

- "من أين أتيت"؟

- "مصر"

- "أين تحبين أن تكوني الآن"؟

- "مصر".

- "عم تبحثين"؟

- "حب"!

- "معركتك"؟

- "ممم.. ربما"

- "قلت بلا تفكير ولا فذلكة.. أغمضي عينيك"!

- "رويدك".

- "أجيبي في ثانيتين بكلمة واحدة.. معركتك"؟

- "أخفقت.. التالي: كيف تحبين أن يكون حبيبك"؟

- "صعيدي"!

- "صـ.. ماذا؟!

"صعيدي! أعني من جنوب مصر"

ارتخت في جلستها بجذعها الضخم، وقالت مبتسمة:

"آه الجنوب.. أرض الحضارة المصرية القديمة.. الأرض الأم.. مخبئة الأسرار في باطنها باهرة العالم بما على ظهرها"

- "هي كذلك"

"لقد نصرت حضارتكم الأولى المرأة كما لم تفعل حضارة أخرى أيها المصريون.. حضارة اتخذت من النساء ملكات وربات وآلهة ورموز نماء وخصوبة وقوة وحب، ونسجت حول النساء أساطير ملؤها الإخلاص والقدرة على الفعل.. لقد وقعت في حب أساطيركم مذ كنت مراهقة. حتى إني كنت أتصيد أية حفلة تنكرية كي أتخذ هيئة كليوباترا! آآآه.. كم أحببت أن أرسم عيني كي تبدوَا واسعتين مكحلتين بجفنين ملونين كمثلها! كيف تتخيلين رجلك الجنوبي"؟

"مممم.. أسمر.. ربما بوجه صخري فيه مسحة من صلابة وخشونة.. عينان بنيتان.. نظرات حادة إذا ما غضب.. وحانية مخترقة للروح ذاتها إذا ما صفا.. وله لكنة جنوبية ثقيلة على أذني القاهريتين.. أحياناً يقول ألفاظاً جنوبية لن أفهمها، وحين أسأله عن معناها سيضحك فأضحك لضحكه"!

"أنت مخبولة تماماً! لكنك لم تترددي حين سألتك عن كيف تريدينه"!

"صحيح.. بلا تفكير ولا فذلكة"

"تكنيك الأسئلة المتعاقبة السريعة التي تتطلب إجابات قليلة الكلمات حادة السرعة هو تكنيك متبع في جلسات الاستنطاق في أجهزة المخابرات، ليستخرج الحقائق ويجريها على الألسنة دون أن يدع فرصة للعقل كي يختلق حولها الأكاذيب، أو يبتر منها أو يزيدها.. وإن كان هذا التكنيك لا يُفلح بمفرده.. عادة ما تُستخدم معه أجهزة الصعق الكهربي! في كل مرة يخفق المستنطَق في مجاراة المحقق بالسرعة وعدد الكلمات المحددة تكون من نصيبه صعقة فورية! لكني لم أكن لأصعقك يا عزيزتي"!

- "شكرا"!

في خدمتك! إذن أنت تصبين إلى قصة حب مصرية مع جنوبي.. ومن يدري.. ربما يحيك لك هو معركة تلائم قدّك! إذا كان الأمر كذلك فماذا تفعلين هنا في أقصى الشمال؟! كليوباترا تنتظرك أنت الأخرى وقد حددت عينها بالأسود وظللت جفنها بالأخضر.. هناك.. في معبد ما في بلادكم الحارة تلك! هلمي"

***

أنا أم الأشياء جميعاً

سيدة العناصر

بادئة العوالم

حاكمة ما في السماوات من فوق

وما في الجحيم من تحت

أنا مركز القوة الربانية

بيدي أقدّر نجوم السماء ورياح البحر وصمت الجحيم

يعبدني الناس بطرق شتّى.. وتحت أسماء شتّى

لكنّ اسمي الحقيقي هو "إيزيس"

من ترنيمة مصرية قديمة- "ظل الأفعى" ليوسف زيدان

***

زينب

ضربتني حمى العشق في أيام، تماماً كما يحدث في الحكايات!

عشقت رجلاً جنوبياً، له طلة أبطال الحكايات..

وفي أقاصي الجنوب المصري ارتديت جلباب زفاف مزركشاً، واعتليت ظهر جمل أطوف البلاد بوجه مغطى ويدين وقدمين منقوشتين بالحناء.. كنت عروساً على الطريقة الجنوبية.. كنت كعرائس الحكايات!

ولسبع ليال كاملة استمر زفافي.. كما يُروى في الحكايات!

وهناك، في أرض الحكايات، وضعت حملي.. هناك جئت بـ"مخلوقي الصغير".. زينب!

زينب.. ينطوي في بنية عينيها العالم الأكبر.

زينب.. في عينيها الصغيرتين ترقد بذور المعاني في انتظار من يرعاها لتزدهر وتُفهم.

زينب.. بنتي أنا.. مني أنا.. خلقت وكبرت ولعبت ونامت وصحت ودبدبت بقدميها الصغيرتين في بطني أنا!

زينب.. بنت بمزاج رجل جنوبي، هو أبوها!

زينب..

كيف كانت أيامي قبل زينب؟

وهل كانت لي أيام قبل زينب؟!

ما أضحكني قبل زينب وما أبكاني؟ ما سهرني قبل زينب وما شغفني حباً؟

لم اعتركت قبل زينب؟

ماذا حكيت قبل زينب؟ ولمن حكيت قبل زينب؟

ما كان قبل زينب؟!

أجلس جوار زينبي وقد غفت، أهشّ ذباب الصعيد اللحوح اللزج عن فراشها، وأقبّل أصابع قدمها الدقيقة إصبعاً إصبعاً حتى تصحو من غفوتها، فأتصنّع التأفف منها، والتململ من تعبها وطول سهرها!

أصفّف شعر زينب ثم أناولها المشط لتمشط شعري، فتبعثره وتقطع خصلاته، ثم تلقي بالمشط أرضاً وتجري ضاحكة.. فأتصنّع الغضب!

أحمم زينب طويلاً طويلاً، نغنّي في الحمام ونلهو بالماء، وما أن يطال الصابون عينيها حتى تبكي، وتملأ الدنيا صراخاً فأتصنع الصرامة وأصر على أن تكمل حمامها وإن باكية.

أقترب بزينب من عشش الطيور لنقلّد أصواتها سوياً. وحين تفزع منا الدواجن وتهرع بعيداً، تجفل زينبي وتبكي، فأربت ظهرها قائلة بلا انقطاع: "باكباك باك با باككك.. باكاكاك باكا باكاك".. هكذا تتواصل الدواجن يا زينب فلا تخافي منها!"

أتلصص وزينب على الجاموس في الحظيرة خائفتين، وحين تأتي الجاموسة بحركة مفاجئة تجري كلتانا خائفتين، زينب تبكي وأنا أضحك!

أقترب بزينب من حمار الجيران في حذر دون أن نحدث ضجيجاً؛ حتى لا ينتبه لنا، وحين ينهق بصوته العالي تنتفض زينب وتصرخ فأحملها مهرولة في كل صوب غير عالمة ما يفعل الناس حين تنهق الحمير قرب آذانهم؟!

أجلس وزينب أمام فرن عمتها تلفحنا حرارته بينما تصنع لنا العمة مخبوزاتها الشهية: "الكعكة الكبيرة لك يا أم زينب.. أما الصغيرة فلزينب.. لا تدعي أمك تأكل كعكتك يا زينب!"، هكذا تقول العمة الطيبة بوجهها المستدير الضاحك دائماً.

أستدعي الحنانة النوبية لتنقش لي الحناء على يدي، فتقضي زينب يومها غير فاهمة ما كل تلك الشخبطات السوداء الكثيرة على يد أمها وقدميها، فتمرر أصابعها الصغيرة على النقوش في محاولة لإزالة هذا الرسم الدخيل عن مسامّي!

أنصت وزينب إلى أصوات المداحين الذين يقيمون ليالي الذكر ومجالس المدح في القرى المجاورة، فأنشد لها بيتاً أو بيتين في "الجمال الزينبي"، فتبتسم، وقد أربكت اللغة الفصحى عقلها الصغير!

أطهو لزينب الأرز المسلوق مع الخضار، وحين يتعجّن الخليط مني فيصبح غير ذي هيئة ولا صفة، ألجأ وزينب على ذراعي إلى الجدة

العليمة بالمخفي من أسرار الصواني والمطوي من حكايات الطواجن؛ كي تصنع لنا على عجل شيئاً ما صالحاً للأكل!

وحين تنفد مني الحكايات، وحدها الجدة تنقذ الموقف بلهجتها الجنوبية وصوتها الرنان فتحكي لنا، زينب وأنا، حكاية "السيجعون المخيف"! وكنت قبلها، لا أعرف أن هناك "سيجعوناً مخيفاً" في عالم حكايات الأطفال!

زينب..

حين ترتفع حرارة الجسد الصغير أسهر جوارها أبكي!

أين أمي؟

وحدها أمي تملك سر خفض الحرارة! هي وحدها في هذا العالم بأسره التي تعرف كيف تطلّ على البنات المحمومات وتجسّ جباههن؛ لتتأكد من استجابة أجسادهن للدواء.. وحدها تعرف كيف تسهر على طرف الفراش غير باكية، كأنما لتخيف الحمى وتبعدها عن فراشي، أو كأنما تقول: "عفواً! هذا فراش صغيرتي.. لا مكان لك أيتها الحمى ها هنا!".

أما أنا.. فأنا الصغيرة التائهة التي لا تعرف إلا أن تقلّد أمها لتبدو في عيني صغيرتها أمّاً من ذاك الطراز الذي يعرف كل الأشياء.. من طراز الأمهات اللاتي يجلسن على أطراف أسرة صغارهن ليُخِفْن الحمى!

سأعلّق لزينب حرزاً في صديرية ثوبها ليحفظها، وسأزور معها الأولياء متوسلة أن يرعوها، وأحرق عرائس الحسد تحت قدمها الصغيرتين؛ علّ العيون تكفّ عنها.. سأعلّم زينب حروف الهجاء العربية، وسألقّنها

الفصحى وأحفّظها القرآن.. سأرسم لها الحناء النوبية نقوشاً على يديها السمراوين وأصرّ على أن تدع شعرها متموجاً على طبيعته دون أن تقيّده ولا أن تغطّيه..

سأقضي العمر الباقي طال أم قصر أحكي لزينب حكايات "ألف ليلة وليلة"، وأشكّل لها وجداناً تسبح فيه كائنات مجنحة وساحرات طيبات وبحار عامرة بالحوريات الحسناوات، ولها أن أنصبها سيدة الأكوان ومالكة الأرضين في كل حكاية حتى ترضى!

وربما سأحكي لزينب ذات يوم عن بلاد بعيدة بعيدة بعيدة باردة.. بلاد يقال لها الدنمارك، ويقال إن أهلها منحدرون من نسل قوم قدامي كانوا يُعرفون بالفايكنج!

أسوان- شتاء ٢٠١٤

الفهرس

إهداء	٥
ممسوسة	٧
الحورية	١٣
ماسبيرو	١٩
ترانزيت	٢٩
كاميلا	٣٣
هيلينا	٣٩
بيلاروب	٥١
فرانسواز	٥٥
هيلجا	٥٩
ألطاف	٦٣
مارسيل	٧٧
أوراش	٨٥
Jingle Bells	٩٣
ميشيل	١٠١
فاطمة زهرا	١١٧
قاسم	١٢٥
إنستينا	١٥٧
زينب	١٧٣

نابروجادا

لم أسأل الحورية عن اسمها ، ولا حتى من أين جاءت باسمي الذي كانت تناديني به بهدوء كما لو كانت تعرفني منذ ميلادي ! كنا ننصت إلى المداحين وكنت أختلس أنا النظر إليها وقد جلست بهية مالئة المكان بعبق غامض وسحر شفاف.. قالت الحورية معقبة على الأبيات التي كان المداحون ينشدونها "العاشق يألم أكثر من سواه"

دون
للنشر و التوزيع

تم إعادة الرفع بواسطة

مكتبة عسكر

ask2pdf.blogspot.com